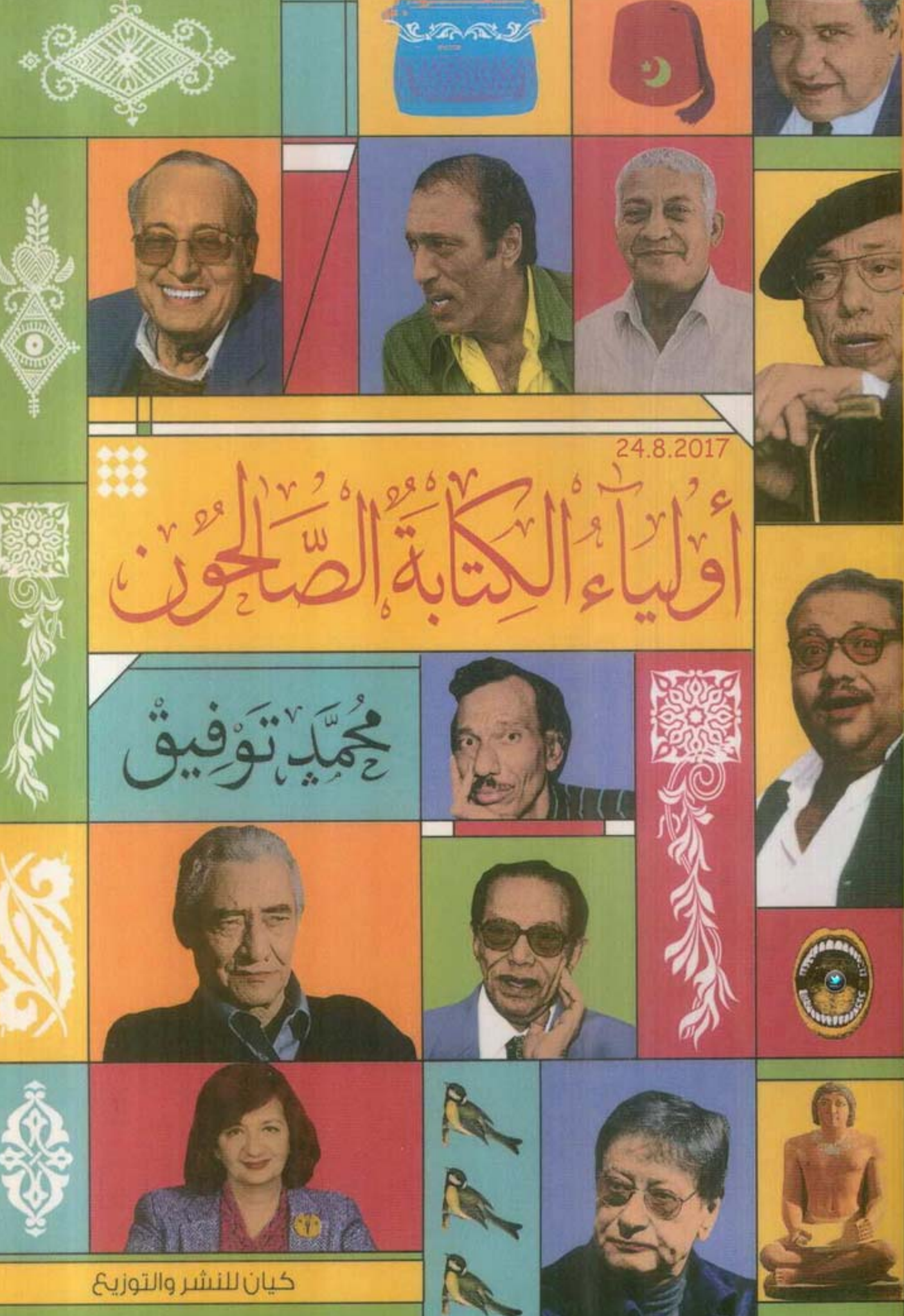

24.8.2017
أولياء الكتابة الصالحون
محمد توفيق
كيان للنشر والتوزيع

أولياء الكتابة الصالحون

محمد توفيق

أولياء الكتابة الصالحون

اسم الكتاب:أولياء الكتابة الصالحون

تأليف: محمد توفيق

تصحيح لغوى: محمد الشيخ

رقم الإيداع: 2014/23566

الترقيم الدولي: 1-73-6376-977-978

***



إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع - 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة - الهرم

محمول: 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

الإهداء

إلى لُبنَى..

هذا الكاتب عن جدودك.

وما أدراك ما الستينيات!

ذهبتْ الكاتبة سناء البيسي إلى الدكتور زكي نجيب محمود تبلغه بإعجاب سعاد حسني بإحدى مقالاته في جريدة «الأهرام»، فابتسم الفيلسوف، وبدت مظاهر الانتعاش والحُبور على وجهه ثم علّق قائلًا: «هيَّ سعاد بتقرالي؟!».

لم يُصدق المفكر الكبير الذي قضى عمره بين نظرياته الفلسفية، وأفكاره العميقة، وعباراته الرصينة أن فنانة الشعب واحدة من القراء الذين ينتظرون مقالاته، فرغم كثرة مريديه من صفوة الصفوة، ونخبة النخبة من الفلاسفة والمفكرين وكبار المثقفين فإنه لم يشعر بالسعادة إلا حين علم أن سُعاد تقرأ له!

وهكذا أي كاتب، مهما بدا أنه يكتب لنفسه وأنه غير مكترث وغير عابئ بما يجري حوله ومهما علا شأنه وكثرت جماهيريته وعلا صوت مريديه وتهافت على كتبه الجميع، إلا أنه حين يرى قارئا جديدا خارج الإطار الذي يتوقعه يشعر بفرحة طفل صغير حصل على قطعة شوكولاته على غير انتظار، فما بالك إن كان هذا القارئ هو سعاد حسني ذاتها!

سعاد ونجيب كلاهما بدأ نجمه يلمع في ستينيات القرن الماضي، ورغم التباين الشديد بينهما فإن كليهما كان يُقدِّر الآخر وينتظر إبداعه، وهكذا كان الجيل بأكمله سواء اتفقوا أم اختلفوا، فأحمد رجب كان يُقبِّل يد أستاذه جليل البنداري رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»، ورجاء النقاش أفردَ كاتبًا كاملا عن

الشاعر محمود درويش رغم كونه أصغر منه سنًّا، ومحمود السعدني كتب فصلا في أحد كتبه عن صديقه كامل الشناوي، والشناوي كتب عن مصطفى محمود، والأبنودي رثى صلاح جاهين، وجاهين كتب عن فؤاد حداد...

كل مبدع منهم كان يدرك حجم الآخر ومكانته، رغم أن بعضهم كان أصدقاء والبعض الآخر كان من ألدّ الأعداء، وبعضهم كان من رموز اليمين والبعض الآخر من أعمدة اليسار، وبعضهم بلغت شهرته الآفاق والبعض الآخر لم يحصل على عُشر ما يستحق، وبعضهم كان مترفًا والبعض الآخر كان يعيش بالكاد، وبعضهم كان ثوريًّا عنيفًا صادمًا والبعض ظل محافظًا رقيقًا هادئًا، وبعضهم كان متحدثًا بارعًا والبعض الآخر كان لا يتحدث مطلقًا، وبعضهم كان مفكرًا والبعض الآخر كان مفجرًا للثورات، وبعضهم دخل السجن أكثر من مرة وبعضهم لم يَزُر أحدًا في السجن مطلقًا، وبعضهم اقترب من السلطة وبعضهم شارك في تنظيمات سرية هدفها قلب نظام الحكم!

هؤلاء جميعًا بكل خلافاتهم واختلافاتهم «لحم دماغنا من خيرهم» فهم أعمامنا الذين نَدين لهم بالفضل والسبق، ونتعلم منهم ونتّبع خطاهم ونَحْذَر خطاياهم، وندرك حجم قاماتهم وقيمتهم، فكلهم أبدعَ وتفرَّدَ وتألَّقَ وثارَ وأثَّرَ وجدَّدَ وصنع مجدًا يصعب على غيره الوصول إليه.

لكن المدهش أن جميعهم عاش ولمع في ستينيات القرن الماضي، وما أدراك ما الستينيات حين التقى كل الجبابرة في عصر واحد وساعة واحدة!

وهي صدفة ولكن بألف ميعاد، كأن القدر أراد أن يلتقوا جميعًا في لحظة فارقة، ويسكنوا أرضًا واحدة، ويصير كل واحد

منهم بمثابة وليٍّ لا يمكن تجاوزه، ولا يجوز أن لا نعرفه، لكنهم كانوا أولياء بلا أضرحة ولا مقامات، لأنهم أولياء للعقول ومُلهِمون لمريديهم سواء كانوا بضع عشرات أو عشرات الملايين، فالاحتفاء بالرموز لا يكون بكثرة الأتباع، ولكن بحجم التأثير، وعِظَم الدور، وقدْر الصدق، وعُمق التجربة، فالأشْهَر ليس بالضرورة الأفضل!

أساطير في الظلّ

إذا كان علينا أن ننظر إلى الحاضر بغضب، فعلينا أيضًا أن ننظر إلى نفس الحاضر بخجل!

جميل عارف

صباح الخير يا أستاذ بهاء!

«١»

أيها القارئ..

هل عرفت أحدث تعريف للإنسان؟

لقد قيل مرة: إنه حيوان ناطق، ثم تبين أن الببغاء ينطق.

وقيل: إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.

وقيل: إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل، وإن كان العقل درجات!

وحار العلماء طويلا: فالإنسان كائن حي، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات، ولكن المؤكد أن هناك شيئًا ما يميِّزه عن الحيوان، شيئًا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة.

وأخيرًا اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق: الإنسان حيوان ذو تاريخ!

ما معنى ذلك؟

معناه أن الميزة الأولى التي تميِّز الإنسان عن غيره من المخلوقات أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها، فالإنسان الواعي يرى قطعة الجبنة ويرى المصيدة!

هكذا كان يفكر أحمد بهاء الدين، الذي كان مفكرًا قبل أن يكون كاتبًا، وإنسانًا نبيلا قبل أن يكون صحفيًّا كبيرًا وراقيًا،

ورقيقًا قبل أن يكون محللا وخبيرًا وقانونيًا؛ فقد تخرج في كلية الحقوق -التي زامله فيها الأديبان فتحي غانم وعبد الرحمن الشرقاوي- وعمل في بداياته مفتشًا للتحقيقات وذهب مع رئيسه المستشار مصطفى درويش للتحقيق في قضية في أحد بلاد الوجه البحري، ونظرا إلى دقة جسمه فقد جاءت شكوى إلى الوزير بأن مصطفى درويش اصطحب معه ابنه الصغير على حساب الحكومة!

بهاء حقوقيٌّ من طراز خاص تعلَّم من القانون ما جعل في صدره ميزانًا دائمًا قائمًا يزن به كل شيء، وإذا كان لم يجلس على منصة الأحكام للنظر في قضايا الناس فإنه اختار -بعدما استقال للتفرغ للكتابة في الصحافة- أن ينظرها في عموم الشوارع لا في ساحات المحاكم.

«٢»

كان يدرك أن من اقترب من السلطة احترق! فحافَظ دائمًا على أن تكون هناك مساحة واضحة بينه وبينها، فعلى قدر حرص السلطة على سماع رأيه ورؤيته فإنه لم يكن كاتبها ولا صوتها ولا أحد أبواقها، فقد اختار منذ البداية أن يكون كاتبًا للشعب، فلم يسعَ يومًا لكسب مريدين، ولم يطمع في كسب ود صاحب سلطة أو مال أو نفوذ، فهو يقول ما يعتقد أنه الحق دون حسابات أو مواءمات.

هو من قلائل لم تغيِّرهم تقلبات الأحوال، فلم يتنكر يومًا لرؤيته وفكره، منذ بدأ في «صباح الخير» حتى اختتم مشواره في مجلة «العربي» الكويتية، فرغم الصورة المطبوعة عنه أنه كاتب

الصفوة صاحب الثقافة الراقية، فإن كتاباته عبّرت عن مطالب الجماهير الواسعة، لكنه أيضًا كان ينادي دائمًا بضرورة مواجهة شَطَط الرأي العام، وعدم الاستسلام لكل اتجاهاته.

وإذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين -كما فسّره الأستاذ مصطفى نبيل- أو سعيت للوصول لمفتاح شخصيته وسر جاذبيته والقبول الكبير الذي يتمتع به والمصداقية التي تُحققها كتاباته فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة، المزيج بين الحس الوطني العالي والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ إلى المستقبل مع مسحة إنسانية، وهي كلها تبدو واضحة للعيان في شخصيته وأعماله.

فمنذ شبابه الباكر كان يجمع بين شجاعة المناضل وثقافة المفكر؛ ففي يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ شُجَّ رأسه في حادث كوبري عباس خلال مشاركته في مظاهرة تطالب بالجلاء، وفي الوقت ذاته كان يجلس على مقهى «إسترا» المطلّ على ميدان التحرير، وينهمك في القراءة لساعات طويلة لا يترك شاردة أو واردة، حتى صار المرجع الأول في الصحف والمجلات، لكن عينيه دفعت ثمن نهمه للقراءة، فقد أصيبت عيناه حتى صار من الصعب عليه أن ينظر في جريدة أو كتاب!

«٣»

كان ثوريّ الهوى، لكنه حين قامت الثورة لم يسعَ لأن يكون واحدًا من رجالها في الصحافة، بل كان ناقدًا لبعض تصرفات المحسوبين عليها، فتم نقله من رئاسة تحرير «أخبار اليوم» إلى مجلة «المصور» وهو ما اعتبره بمثابة نفي له، وعلّق قائلا: «إن

نقلي من جريدة يومية هي الأوسع انتشارًا إلى مجلة أسبوعية، كنقل مطرب من ميكروفون الإذاعة إلى ميكروفون في سرادق»!

لكنه حين انتقل إليها طوّرها وغيّر ملامحها وجعلها من أوسع المجلات انتشارًا، مثلما فعل في كل جريدة أو مجلة تولى رئاسة تحريرها، فحين صدرت مجلة «صباح الخير» في ١٢ يناير عام ١٩٥٦، كان بهاء لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، لكنه استطاع أن يحقق قفزة كبيرة في تطور الصحافة المصرية، ويجعل من مطبوعة حديثة نغمة مغايرة لما هو سائد، وروحا جديدة، وصيغة مبتكرة لم يعهدها القارئ من قبل، فجذبت شريحة جديدة من القراء، وجذبت أيضًا جيلا جديدا من الكتّاب الذين صاروا نجومًا في ما بعد، فيكفيه أنه مكتشف صلاح جاهين الذي من فرط حبه له سمّى ابنه «بهاء».

لكن جاهين لم يحب بهاء لصحافته فقط، ولكن عشقه لبساطته، فالبساطة هي السمة الغالبة عليه، البساطة الشديدة التي تظنها في البداية تواضعًا ثم تكتشف أنها طبيعته بلا أي ادعاء أو تكلُّف، يأكل ساندويتش الفول في الشارع، ويفوت على بائع الجرائد يشتري جورناله، البساطة جعلته رئيس التحرير المثقف «اللي بيمشي معانا على الأرض ومش طاير في الهوا» -على حد تعبير البديعة سناء البيسي- يحتضن جيلاتي الدندرمة على الرصيف ويسكن في شقة من حجرة واحدة وصالة ومطبخ بعد توليه أكبر منصب صحفي في مصر وهو رئاسة تحرير «أخبار اليوم».

ورغم شهرته الواسعة في الخمسينيات والستينيات، وتقديره للزعيم جمال عبد الناصر فإنه لم يقترب منه طوال فترة حكمه، ولم يلتقِه لقاء منفردًا رغم وجود مساحة مشتركة بينهما، لكنه

اكتفـى أن يعـرف الرئيـس آراءه عـبْر كتاباتـه، وعـبْر صديقـه محمـد حسـنين هيـكل.

وحـين تـولى السـادات الرئاسـة أمـر بنقلـه مـن «دار الهـلال» إلى ««روزاليوسـف»»، فرفـض النقـل رغـم حبـه لـ«روزا» التـي يعـد أحد صنّاعهـا، وقـدّم اسـتقالته، وانتقـل للعمـل كاتبًـا في جريـدة «الأهـرام» لكـن قـرارًا آخـر صـدر بنقلـه إلى الهيئـة العامـة للاسـتعلامات ومعـه ١٢٠ كاتبًـا مـن بينهـم نجيـب محفـوظ ويوسـف إدريـس وتوفيـق الحكيـم، فرفـض، وفضّـل أن يجلـس في بيتـه.

وعقـب نـصر أكتوبـر، عـاد إلى الكتابـة، وحـدث تقـارب بينـه وبـين الرئيـس السـادات، لكـن رغـم حـرص السـادات عـلى تحييـده فإنـه لم يجـد حرجًـا مـن أن يعـارض قراراتـه جهـارًا نهـارًا ويكتـب المقولـة الأشـهر التـي لا يـزال صداهـا يـتردد حتـى الآن وهـي «الانفتـاح سـداح مـداح.. يـا ريـس»!

مهندس الصحافة

«١»

حين كان حسين سرّي باشا رئيسًا للوزراء أصدر قرارًا أن لا يستخدم صغار الموظفين الأسانسير في مواعيد معينة، وحدث أن شاهد سرّي باشا علي أمين يكسر هذه القاعدة فعنّفه، فردّ عليه علي: معاليك فاكرني مين؟ أنا مش علي، أنا مصطفى رئيس تحرير «آخر ساعة».. فقال له حسين سرّي: «يا سي مصطفى أنا باهزّر.. أنت متصوّر مش هاعرف علي أمين المهندس الصغير بالدرجة السادسة من مصطفى، تعالى اشرب فنجان قهوة في مكتبي وندردش شوية.. يا مصطفى»!

ربما كانت هذه الواقعة رغم طرافتها سببًا في تغيير حياة علي أمين الذي ترك العمل الحكومي، وتفرغ مع شقيقه لإصدار جريدة «أخبار اليوم»، فربما استشعر الفارق بين الصحفي والموظف، وحين جاءت الفرصة أمسك بها، وتمسك باستثمارها، وطوّع كل قدراته من أجل نجاحها، بعد أن كان قد تدرج في العمل الحكومي، حتى صار مديرًا عامًّا للمستخدمين والمعاشات.

قليلون جدًّا مَن يعرفون الفرق بين ملامح مصطفى وعلي أمين، وأقل منهم مَن يدركون أن كل واحد منهم كان نمطًا مختلفًا، فمصطفى كان العقل، وعلي القلب، مصطفى يستوعب الجميع ويهادن ويوازن أما علي فكان يطلق صيحاته في وجه الجميع دون أي حسابات، فلم تكن لعبة السياسة على رأس

أولوياته، فاهتمامه الأول وربما الأوحد كان الصحافة وتطويرها، لكن ربما رحيله المفاجئ في عام ١٩٧٥ جعل البعض لا يعرفه، والبعض الآخر يجهل دوره، والأغلب لجأ إلى اختزال التوأم في شخص واحد.

وهذا أضر علي أمين كثيراً، فكل ما فعله علي نُسب إلى مصطفى، وكل أفكاره صارت أفكار أخيه، ورغم أنهما كانا يفكران ويبدعان ويطوران ويصنعان عشرات الإصدارات معًا لكن كل واحد منهما كان له دور مختلف ولمسة مغايرة ورؤية فريدة، فمصطفى كان يعيش بين الصحافة والسياسة، وربما دفع أغلى ثمن للعب في هذه المساحة!

أما علي فكان متخصصا في تطوير الشكل الفني للصحف والمجلات، وطباعتها وتوزيعها، وهو صاحب عمود «فكرة» الذي ارتبط باسم أخيه، وهو أيضًا صاحب فكرة عيد الأم، فقد طرحها لأول مرة في عموده «فكرة» قائلا: لِمَ لا نتفق على يوم من أيام السنة نطلق عليه يوم الأم ونجعله عيدًا قوميًا في بلادنا وبلاد الشرق، وفي هذا اليوم يقدم الأبناء لأمهاتهم الهدايا الصغيرة ويرسلون إلى الأمهات خطابات صغيرة يقولون فيها «شكرًا» أو «ربنا يخليكي»؟ لماذا لا نشجع الأطفال في هذا اليوم أن يعامل كل منهم أمه كملكة فيمنعها من العمل، ويتولى هو في هذا اليوم كل أعمالها المنزلية بدلا منها؟ ولكن أيُّ يوم في السنة نجعله «عيد الأم»؟ وبعد نشر المقال في جريدة «الأخبار» اختار القراء تحديد يوم ٢١ مارس ليكون عيدًا للأم.

«٢»

والـدة عـلي أمـين هـي ابنـة شـقيقة الزعيـم الوطنـي سـعد زغلـول، لذلـك شـاء القـدر أن يشـهد ويشـاهد بنفسـه مـا جـرى في ثـورة ١٩ -وعمـره خمـس سـنوات- مـن داخـل بيـت سـعد زغلـول، فصنـع هـذا الظـرف وعيًـا مبكـرًا جـدًّا لطفـل صغـير، فبـدأ حياتـه الصحفيـة عـام ١٩٢٢ وهـو لا يـزال طفـلا عمـره ثمـاني سـنوات، وأصـدر مـع شـقيقه مصطفـى مجلـة اسـمها «الحقـوق» مكتوبـة بالقلـم الرصـاص، وتحتـوي عـلى أخبـار البيـت، وبعدهـا بعامـين أصـدرا مجلـة «سـنة ثالثـة ثالـث»، ثـم أصـدرا مجلـة «عـمارة البـالي» لأولاد الحـي الـذي يقيـمان فيـه. وفي ١٩٢٨ صـدر قـرار بفصـل عـلي أمـين مـن المدرسـة لأنـه صفـع حكمـدار الغربيـة الـذي حـاول الاعتـداء عـلى مصطفـى النحـاس باشـا في مدينـة طنطـا، وبعـد عامـين صـدر عفـو عنـه ودخـل المدرسـة الخديويـة، ثـم التحـق بالجامعـة الأمريكيـة وحصـل عـلى البكالوريـا وسـافر إلى إنجلـترا وحصـل عـلى بكالوريـوس الهندسـة عـام ١٩٣٦.

لكنـه لم يتصـور أنـه سـيصبح بعـد أقـل مـن عـشر سـنوات مهنـدس الصحافـة المصريـة والعربيـة، وأنـه سـيصنع للصحافـة شـكلا فنيًـا مختلفًـا ومغايـرًا لمـا اعتـاد النـاس عليـه، فعـلي أمـين بمثابـة سـيد درويـش الصحافـة، فمثلـما غـيَّر درويـش شـكل الموسـيقى غـيَّر أمـين شـكل الصحافـة.

كل تجربـة خاضهـا أضـاف لمسـة جديـدة، فحـين انتقـل إلى «دار الهـلال» ليعمـل رئيسـا لتحريرهـا كان توزيعهـا محـدودًا للغايـة، وكانـت عـلى وشـك الإفـلاس، لكنـه قـرر أن يجمـع كل نجـوم الفكـر

والأدب والصحافة في إصدار واحد، فأعاد الحياة إلى المجلة الأعرق، فاضطرت «دار الهلال» لأول مرة في عمرها أن تجمع الورق «الدشت» وتصنع منه نسخًا رديئة الطبع، التهمتها السوق في دقائق بعد أن نفدت كل الكمية المطبوعة!

هذا نتاج ما فعله علي أمين في مجلة «الهلال»، وهذه هي قيمته، فقد بثّ الروح في الصحافة حتى لا تتعرض للانقراض، لذلك قال يومها: «أنا لم أصنع هذه المعجزة، مَن صنعوها هم الذين يحرقون دماءهم وأعصابهم في المقاعد الأولى في صحافة بلادك، إنهم إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وعباس العقاد وطه حسين وكامل الشناوي وصلاح جاهين ومصطفى أمين والدكتور محمد حسين هيكل».

«٣»

لكنّ علي داخل الجريدة شيء، وخارجها شيء آخر!

فعلي أمين خارج الجريدة إنسان وديع وهادئ الطباع، لذلك كان يظن عبد الحليم حافظ أن الفنان حسين رياض هو الأنسب لأن يلعب دور رئيس التحرير في فيلم «يوم من عمري»، خصوصا أنه يرى صديقيه مصطفى وعلي أمين خارج بلاط صاحبة الجلالة حيث سهرات الفن والصحافة والأدب والسياسة، لذلك لم يكن يتخيل أن يرى ما رآه!

ذهب عبد الحليم حافظ إلى «أخبار اليوم» بعد الاتفاق على أن يتم تصوير بعض المشاهد داخلها، وطلب من صديقه أحمد رجب أن يُظهر له حقيقة العلاقة بين المحرر ورئيس

التحريـر وأن يسـتفز عـلي أمـين لـيراه بصورتـه الصحفيـة حيـث التعامـل دون تكلُّـف أو تصنُّـع، وبالفعـل داعـب التلميـذ أسـتاذه بواحـد مـن مقالبـه الصحفيـة، فانطلـق عـلي أمـين وهـاج ومـاج، واندهـش العندليـب لمـا رآه، وذهـب إلى محمـود المليجـي ليعـرض عليـه أن يقـوم بـدور عـلي أمـين بـدلا مـن حسـين ريـاض الـذي كان مرشـحًا لعمـل هـذا الـدور!

كان اختيـار حليـم لأحمـد رجـب هـو الاختيـار الأمثـل، باعتبـاره الأقـرب إلى قلـب عـلي أمـين، إذ كان يقـضي معـه ١٨ سـاعة يوميًّـا في «الأخبـار»، ولا يفارقـه إلا في أثنـاء النـوم. يـروي أحمـد رجـب ذكرياتـه مـع عـلي أمـين قائـلا: في الخمسـينيات فصلنـي عـلي أمـين عـشرات المـرات، وأنزلنـي مـن نائـب رئيـس تحريـر إلى محـرر عـشرات المـرات، وعـشرات المـرات أصـدر قـرارا بنقـلي بوابًـا لـ«أخبـار اليـوم» عـلى أن يحـلّ محـلّي أبـو زيـد البـواب نائبًـا لرئيـس التحريـر، لكـن حـدث مـا جعـل عـلي أمـين يكـفّ عـن تهديـدي بأبـو زيـد، أو عـلى الأصـحّ، يقلـل مـن حدتـه، إذ أرسـلتُ إليـه مذكـرة عـن تأخـر الأقسـام الفنيـة في إعـداد غـلاف العـدد الجديـد، ومـع المذكـرة صـورة الغـلاف الملونـة مـن تصويـر أحمـد يوسـف، ونظـر عـلي أمـين إلى صـورة الغـلاف، فـإذا بهـا صـورة أبـو زيـد وعليهـا تعليـق: «أبـو زيـد معبـود النسـاء» اقـرأ ص٢٦! وضحـك عـلي أمـين واعتبرهـا نكتـة ورفـع سـماعة التليفـون واتصـل بي لكننـي كنـت في مكتـب آخـر، فاتصلـتُ بعـلي أمـين منتحـلا شـخصية رئيـس الأقسـام الفنيـة ومقلـدًا صوتـه، وقلـت لعـلي أمـين: أحمـد رجـب كتـب فينـا مذكـرة وده غـير صحيـح يافنـدم لأن غـلاف أبـو زيـد جاهـز!

دبّرنا يا كبير

«١»

نموذج مختلف، ومخالف، ومغاير، وجاذب، ولافت، ومهمّ، ومؤثّر، وطاغٍ، ومنفرد، ومتفرّد، وصائغ، وصانع، وطبيب، ومحامٍ، وجورنالجي، وروائي، ومسرحي، وسيناريست، وصاحب مدرسة، وصاحب «سوابق»
إنه الكبير صلاح حافظ.

لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يمكن أن تتجاوزه، فهو ذلك النموذج الذي لا يتكرر كثيراً الذي يجمع بين المناضل الحقّ، والصحفي الأحقّ بكرسي رئاسة التحرير، لكن حماس المناضل لم يطغَ على صحافته، فلم يكن يُصدر منشورًا سياسيًّا بل أصدر وأشرف على صحف ومجلات جمعت كل فنون الصحافة، لكنها في ذات الوقت كانت تناصر البسطاء وتدافع عنهم وتقف معهم في وجه السلطة.

فهو من قليل وقليل جدًّا ممن جعلوا الصحافة القومية لسانًا للشعب وليست بوقًا للسلطة، وحين كان يختبئ الجميعُ كان يتصدر المشهدَ، وحين كان يعلو صوت الجميع كان صوته مميزًا، ونغمته مغايرة، لذلك كان ضيفًا دائمًا على المعتقلات، يدافع عن الحق، ويقف ضد الظلم، وينصرف إلى السجن غير عابئ أو مكترث بما يجري له ومعه. كان يتقبل السجن كأمر واقع كأنه سيعيش فيه أبدًا، وأنه المكان الطبيعي للإنسان،

وأبدًا لم يشاهَد مرة وعلى وجهه أي علامة للقلق، ولم يسأل مرة متبرمًا: متى يحين وقت الإفراج؟!

كان مشغولا بأعماله، منشغلا بهموم الآخرين وليست لديه دقيقة تعد فائضًا من الوقت، فالأعباء الملقاة على كاهله كثيرة، وعليه وحده أن ينجزها، كتأليف رواية أو إخراج مسرحية أو الإعداد لحفل سمر أو إلقاء محاضرات أو علاج زملائه من المعتقلين أو الحرس الجنود.

وحدث أن جاء مأمور جديد صارم لا يتردد في البطش والقسوة بالمعتقلين ولكن بعد فترة ابتلع ولداه أقراصا كانت دواء مهدئا له تركها سهوًا بجوار فراشه في البيت، فانهار الرجل وسارع يطلب معونة الأطباء المعتقلين، فراح صلاح حافظ وشريف حتاتة لإسعاف الطفلين، وبينما كانا يُجريان الإسعافات الطبية كان المأمور يبكي ويتوسل إلى السماء قائلا: يا رب أنقذ لي ولو ولدا واحدا! فردّ عليه صلاح: وواحد ليه..؟! ده ربنا كبير ينقذ الاتنين. فتعجب المأمور من الرد ليقول: «الله انتم بتعرفوا ربنا زينا؟!»، وجاء رد صلاح: «نعم.. ونعرفه أكثر منكم.. نعرفه بالتصرفات لا بالكلام»، وعندما استرد صلاح حافظ حريته ظل المأمور صديقا لصلاح حتى النهاية.

«٢»

صلاح حافظ كان أسطورة حقيقية، وشخصية أسطورية، فلم يمنعه قربه من الرئيس السادات من أن يسخر منه، وأن يخالفه، ويختلف معه، فحين وقعت أحداث ١٨ و١٩ يناير عام

١٩٧٧ ووصفها الرئيس الراحل بأنها «انتفاضة حرامية»، خرجت ««روزاليوسف»» التي يرأس تحريرها صلاح حافظ، مدافعةً عن حق الشعب في الخروج للتظاهر ضد النظام، وكاشفة أن المظاهرات كانت بمثابة انتفاضة شعبية من أجل الخبز، فقرر السادات إبعاده عن منصبه، هو واثنين معه هما المبدعان عبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم، فدفع صلاح الثمن راضيًا وتفرّغ لزراعة الجرجير، وكتابة سيناريو وحوار رواية فتحي غانم «زينب والعرش».

المدهش أن حلقات هذا المسلسل الأبدع الذي شارك فيه عدد كبير من كبار النجوم من بينهم محمود مرسي وصلاح قابيل وسهير رمزي وحسن يوسف، تمت كتابتها بطريقة غريبة؛ حيث اتفق فتحي غانم وصلاح حافظ على أن يكتب أحدهما الحلقات الفردية والآخر يكتب الحلقات الزوجية، ولم يلحظ أي أحد أي ثغرة في كتابة الحلقات، فالروح كانت واحدة، كأنه أوركسترا يعزف بآلات مختلفة نغمة واحدة.

صلاح حافظ حلّ المعضلة التي ما زال يبحث لها الصحفيون عن حل حتى الآن، فقد جمع بين القدرة على صناعة صحافة يحبها القارئ ويُقبل عليها وينتظرها وتوزِّع آلاف النسخ وفي الوقت ذاته تكون جريئة وحاسمة ومشاغبة ومنحازة إلى البسطاء، خلطة لا تتكرر كثيراً جعلته يقفز بتوزيع ««روزاليوسف»» حين تولى رئاسة تحريرها من ثلاثة آلاف نسخة إلى ما يزيد على المئة ألف نسخة.

وهكذا فعل في كل صحيفة ترأس تحريرها أو أشرف عليها أو عمل مستشارا لها، فقد كان ينتصر للمهنة وللناس ولم تخذله موهبته ولم يخذله الناس، فهو صاحب واحدة من كبرى المدارس

في تاريخ الصحافة المصرية والعربية، فعلاوةً على إعادته الروح في «روزاليوسف»، فقد شارك في وضع حجر الأساس لعدد كبير من مجلات الخليج.

«٣»

وحين قامت ثورة يوليو وجد صلاح حافظ في مبادئها ضالّته المنشودة، وشعر أنها جاءت من أجل تحقيق المبادئ التي يناضل من أجلها، فدافع عنها رغم أنه كان من أسرة ثرية، ووالده «عُمدة»، لكن حين رأى أن الثورة انحرفت عن مسارها كتب مقاله الأشهر «العصابة التي تحكم مصر» فأُلقيَ في السجن بضع سنين تنقّل فيها بين السجون بعد أن كان على وشك التخرج في كلية الطب مثل زميليه يوسف إدريس ومصطفى محمود، لكنه كان قد وقع أسيرًا بين الأدب والصحافة والسياسة، ولم يكن ممكنا إعادة قيده في كلية الطب بعد خروجه من المعتقل، فلم يعد حَسَن السير والسلوك في رأي الحكومة، فقد صار صاحب سوابق، وإن كانت حتى هذه اللحظة سابقة واحدة فقط.

لكنّ حلمَه كان أكبر!

يقول: لم أحلم في أي يوم أن أكون وزيرا لكنني حلمت طول عمري أن أكون سلطانًا يضع ساقًا على ساق ويقول «دبرني يا وزير»!

وحقق هذا الحلم على الورق حين كتب واحدا من أبدع أعماله «دبّرنا يا وزير» ونشره على حلقات في مجلة «صباح الخير» عام ١٩٨٥ ثم جمعها في كتاب وقال في مقدمته: «سأكون

أسعد الناس يوم أن توضع نسخة من هذا الكتاب في المتحف المصري، باعتبارها من آثار عصر قديم لم يعد له وجود، ولم تعد لمؤلفاته فائدة، لأن القضايا التي يثيرها قد تم حلها والحمد لله... وسأكون أتعس الناس لو أعيدت طباعة كتابي عامًا بعد عام، وجيلا بعد جيل ووزيرا بعد وزير، دون أن نصل إلى حل هذه المشكلات».

والمدهش أن المشكلات التي كتبها وفنَّدها وحللها وفسَّرها وطلب تدخل الوزير فيها، بقيت كما هي دون أي تتغير إلا إلى الأسوأ، لكن الأغرب أن الكتاب أيضًا لم تُعد طباعته!

جميل العارف بالصحافة

«١»

إذا كان علينا أن ننظر إلى الحاضر بغضب، فعلينا أيضًا أن ننظر إلى نفس الحاضر بخجل!

إن بارونات الصحافة هذه الأيام لا يختلفون كثيرًا عن باشوات الصحافة أيام زمان، أي قبل ثورة ٢٣ يوليو، إنهم الباشوات الذين يتحكمون ويتاجرون في أرزاق الصحفيين الذين كانوا يعملون معهم في الصحافة، وذلك بعدما أصبحت الصحافة المصرية جارية في حرملك الطغيان في بلد لم يعد فيه من سلطة سوى سلطة الديكتاتور الواحد، وطغمة من محترفي التآمر والتسلط وحلفائهم الإخوان وبقية دكاكين الإرهاب المعادية للديموقراطية ولنضال الشعب.

«في بلد فَقَدَ نخبته، ويُستعمل فيه الجهل والأمن والدين كأدوات سياسية لتدمير المؤسسات الشعبية وسقوط الدولة، كان من الطبيعي أن تحتل ثقافة الرعاع أغلب الصحف، وساعات الإرسال المرئية والمسموعة، وأن يتم تقسيم الصحفيين إلى تابعين ومعادين، ويتحول شرف المهنة إلى شرف شخصي وكبرياء ومعاناة لدى بعض الصحفيين، في حين ينقلب لدى البعض الآخر إلى دستور للنفاق والفساد، وتكرّس الصفحات لنجوم الاحتراف الديني ورعاة التدين السطحي، وللأسئلة الفاسدة والأجوبة الأكثر فسادًا، وتصبح السطور أداة للفتنة الوطنية وتغطية

جاهـزة وتبريـرا يوميـا لتبديـد الوطـن، ويسـقط الفاصـل بـين الأمـن والصحافـة».

هكـذا قـال العـارف بالصحافـة جميـل عـارف في مقدمـة كتابـه الأجمـل «أنـا وبارونـات الصحافـة» الـذي جمـع فيـه خلاصـة خبراتـه وتجاربـه وحكايـات وأسرار المهنـة، ورواهـا بأسـلوب جـاذب وشـيق وممتـع ولاذع وحـكى أسرارا كثـيرة لم تكـن لـتُروى لـولاه، ومنهـا أن نقابـة الصحفيـين كان مقرهـا الرسـمي الأول داخـل شـقة كانـت ناديًـا للقـمار!

وكانـت هـذه الشـقة تشـغل الـدور الأرضي مـن مبنـى قديـم يتكـون مـن دوريـن في المـكان الـذي بنيـت فيـه عـمارة «وهبـي» وهـي المواجهـة للبنـك المركـزي عنـد تقاطـع شـارعي شريـف وقـصر النيـل، وكانـت عبـارة عـن غرفـة واحـدة وثـلاث صـالات كبـيرة.

وكان بوليـس الآداب قـد داهـم الشـقة لكونهـا وكـرًا للعـب القـمار، وقـام بضبـط بعـض الجرائـم المخالفـة للقانـون فيهـا، وأراد فـؤاد سراج الديـن -وكان وزيـرا للداخليـة والشـؤون الاجتماعيـة في حكومـة «الوفـد» التـي جـاءت إلى الحكـم بعـد حـادث ٤ فبرايـر سـنة ١٩٤٢- مجاملـة الصحفيـين فأمـر بمصـادرة الشـقة، وتسـليمها لهـم في مقـر نقابتهـم!

«٢»

جميـل عارف كان دائمًا يتخذ خط النار سـكنًا.

فقـد حـضر الحـرب العالميـة الثانيـة، وكان أول صحفـي يـزور اليمـن في ١٩٤٧ أيـام الإمـام يحيـى بـن حميـد الديـن ملـك اليمـن. وبعدهـا بعـام واحـد فقـط عمـل مراسـلا حربيـا في أثنـاء حـرب

فلسطين عام ١٩٤٨. وحين وقع العدوان الثلاثي على بورسعيد في عام ١٩٥٦ كان حاضرا بجوار الفدائيين يرصد ما يجري على خط النار، وشهد ثورة لبنان في ١٩٥٨، وكان شاهدا على الانقلابات العسكرية في سوريا، وتابع من داخل المدن العراقية ثورات العراق، ورصد ثورة السودان بتفاصيلها، وعاش مع أبطال جيش التحرير الجزائري داخل الأراضي الجزائرية إثر اندلاع الثورة في بلد المليون شهيد.

لم يذهب إلى دولة إلا إذا قامت فيها حرب أو ثورة، لذا عاصر أغلب حركات التحرر في الوطن العربي وإفريقيا، وقام بجولات صحفية في ١٠٩ دول في مختلف أنحاء العالم على مدار ٥٠ عامًا، واشتهر بتحقيقاته الصحفية التي كتبها عن الدول الإفريقية بعد أن حصلت على استقلالها.

وعاصر أحداث الجامعة العربية منذ إنشائها، وعمل لمدة ١٥ عامًا محررا للشؤون العربية، وكان موضع ثقة عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة، لذا قام بنشر مذكراته السرية التي قرأها الرئيس السادات وتأثر بها في أثناء كتابة مذكراته!

وكان ترتيبه في عام ١٩٧٠ رقم ٥٢ في أقدمية الصحفيين بجدول نقابة الصحفيين المصرية، لكنه رغم تاريخه المهني الطويل لم يجلس على مكتبه ينتظر الخبر بل كان يذهب إليه حيثما كان منذ أن التحق بالعمل الصحفي في عام ١٩٤٥ فور تخرجه في جامعة القاهرة وعمله في مجلة «المصور» التابعة لـ«دار الهلال»، لكنه انتقل منها ليعمل في مجلة «آخر ساعة» مع زميل دراسته الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذي كان زميلا له في نفس الفصل لمدة خمس سنوات كاملة، في مدرسة «السعيدية الثانوية»، وشاء القدر أن يلتقيا في «آخر ساعة» حين

صار بهاء رئيسًا لتحريرها، وعمل هو نائبًا له، وظل في موقعه لمدة ١٩ عامًا، ولم يتركه إلا عندما ذهب ليعمل مديرًا لتحرير مجلة «أكتوبر»، وحين خرج على المعاش صار كاتبا متفرغًا في مؤسسة «روزاليوسف».

«٣»

لم يَنَلْ عارف الشهرة التي يستحقها، وتتناسب مع حجم عطائه، لكنّ فارقًا هائلا بين أن تكون صحفيًّا كبيراً، وأن تكون صحفيًّا مشهورًا، فالشهرة ليست المعيار الأول لقيمة الصحفي وقامته، فبعض مشاهير الصحافة ليسوا كبارًا في المهنة، وبعضهم أقرب إلى مندوب العلاقات العامة الذي يعرف الجميع ويعرفه الجميع فقط لأنه يظهر في كل القنوات في مختلف الأوقات، وآراؤه ترضَى عنها السلطة، وتُرضي القارئ والمشاهد والمُعلِن!

بعضهم يتم التعامل معه وتقديمه باعتباره مفكرًا كبيراً رغم أنه بلا أي إنتاج فكري، وبعضهم يتم التعامل معه باعتباره خبيراً ومحللا استراتيجيًا رغم أنه لم يثبت أنه نجح في تحليل أي ظاهرة أو تقديم أي دراسة حقيقية، وبعضهم إنتاجه الأدبي ضعيف، ولكن يتم تصديره باعتباره أديبًا كبيراً.

لكن بالطبع هناك مشاهير يملكون قدرات خاصة، ومواهب عظيمة، وأفكارًا نبيلة، وحضورًا طاغيًا، لكن الأكثر شهرة ليس من الضروري أن يكون الأكثر كفاءة، ومهارة، وموهبة.

جميل عارف كان من هؤلاء الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة لكن لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يجوز أن لا تعرفه أجيالٌ من الصحفيين الشباب الذين لم يقرأ بعضهم -للأسف- تاريخ المهنة،

ولم يعـرف الرعيـل الأول مـن الآبـاء المؤسسـين لهـا، والمدافعـين عنهـا الذيـن دفعـوا في المهنـة أعمارهـم، دون أن يحصـدوا أي مكاسـب، رغـم أنـه كان صديقًـا لعمالقـة الفكـر والأدب والصحافـة، وكان صديقـا للأسـتاذ هيـكل منـذ أن تعـرف عليـه في أواخـر الأربعينيـات. ويصـف هيـكل علاقتـه بعـارف قائـلا: «جميـل عـارف رفيـق أيـام خـوالٍ تعـود إلى أواخـر الأربعينيـات، حينـما كنـا وسـط السـحابات الورديـة للصبـا جيـلا جديـدًا خطفـت أحلامـه مهنـة البحـث عـن المتاعـب فأعطاهـا نفسـه، وقبلـت بدورهـا عطـاءه، وأخـذت عمـره كامـلا».

صداقـة هيـكل وعـارف جعلـت هيـكل يُقـدم لكتابـه «أنـا وبارونـات الصحافـة» رغـم أنـه كان يحمـل نقـدًا لاذعًـا، وحـادًّا لعـدد كبـير مـن الصحفيـين والساسـة، لـذا حـين سـأل عـارف هيـكل عـن رأيـه في الكتـاب قـال الأسـتاذ: «لا أنـا مختلـف مـع الكتـاب ولا أنـا متفـق معـه»!

ثمن المبادئ!

«١»

كان يدفـع ثمـن مبادئـه راضيًـا مطمئنًـا، لـذا كان ضيفًـا دائمًـا علـى سـجون الأنظمـة الحاكمـة سـواء مـن أيَّدهـا أو عارضهـا أو مـن تجاهلهـا!

المـرة الأولى التـي دخـل السـجن فيهـا كانـت في عـصر الملـك فـاروق، حيـث كان يعـارض الإقطـاع ويهاجـم النخبـة الفاسـدة والحاكمـة، لكنـه لم يكتـفِ بذلـك بـل كـوَّن خليـة ضـد الاحتـلال البريطـاني وقـرر مـع أصدقائـه تصفيـة ثلاثـة مـن أشرس الموظفـين البريطانيـين وأشـدهم دمويـة، وأرسـلوا إلى الثلاثـة حيثيـات وأسـباب الحكـم المبـاشر بتصفيتهـم! ومنحوهـم مهلـة أسـبوعين لـكي يسـتقيلوا مـن مناصبهـم أو يرحلـوا عـن مـصر بعـد الجرائـم التـي ارتكبوهـا في حـق الشـعب، لكنهـم سـخروا مـن الخطابـات التـي وصلتهـم، وظلـوا في طغيانهـم يعمهـون، وفي نهايـة الأسـبوعين بالضبـط تمـت تصفيـة ثلاثتهـم مـما أحـدث فزعًـا مدويًـا في الإدارة البريطانيـة التـي اسـتماتت في البحـث عـن الشـباب الوطنـي الـذي قـام باغتيالهـم، والمدهـش أن الدكتـور مصطفـى مشرفـة كان عضـوا مؤسسًـا في هـذه الخليـة!

أمـا المـرة الثانيـة التـي حـلَّ فيهـا عـودة ضيفًـا عـلى السـجون فكانـت في عـصر الرئيـس جـمال عبـد النـاصر رغـم كونـه واحـدًا مـن رمـوز الناصريـة ومؤرخيهـا والمنتصريـن لأفكارهـا، لكنـه ظـل عـلى

موقفه كما هو، بل ويبرر ما حدث معه قائلا: «إن نصف مَن أعدمتْهم الثورة الفرنسية كانوا من زعماء الثورة»، ويضيف: «خلافنا مع عبد الناصر لم يكن تناقضًا بل كان خلافًا حول الأسلوب، أما الأهداف فكنا على اتفاق تام، وقد كان عبد الناصر يدعو كل الاتجاهات السياسية والوطنية لتسهم في بناء وطن جديد يراه عبد الناصر نموذجًا لدولة قومية ديموقراطية مستقلة، ونراه نحن كذلك، لكنّ أسلوب التنفيذ كان موضع اختلاف بيننا».

أما المرة الثالثة فكانت في عهد الرئيس السادات عقب اتفاقية كامب ديفيد التي كان عودة واحدًا من أبرز معارضيها، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد اغتيال السادات، لكن عودة ظل على موقفه المعارض لسياسات السادات. ويفسر الفارق بين خلافه مع عبد الناصر وخلافه مع السادات قائلا: «إن خلافنا مع عبد الناصر كان خلافًا في إطار الهدف الواحد، بينما خلافنا مع السادات كان تناقضًا رئيسيًا».

وحين وصل مبارك إلى السلطة كان عودة قد جاوز الستين، ولم يعد اعتقاله جائزا، ربما هذا هو السبب الوحيد لعدم دخول السجن في هذه الفترة!

«٢»

رغم شهرته بـ«غاندي الصحافة» فإنه كان ابنًا لأحد كبار التجار، لكن والده أشهر إفلاسه إبان احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات، وقرر أن ينتقل للعيش في حي الحسين بالقاهرة القديمة.

والطريف أنه في أول صباح له في حي الحسين خرج مع والده إلى محل «الحلوجي» لتناول طعام الإفطار من الفول المدمس، ففوجئ أن صاحب المحل كان يُعِدّ صباح كل يوم طبقًا من الفول المدمس منزوع القشر ويحمله بنفسه إلى سعد زغلول باشا!

لم يكن هناك أمل أمام الأب إلا أن يتفوق ابنه محمد في دراسته ليتعلم بالمجان، لذا كان يقول له: «يا محمد أنت أملنا الوحيد في هذه الدنيا.. لم يعد لنا بعد الله غيرك يا بني»، ولم يخيِّب الابن أمل والده، فنجح وتفوق في المرحلة الابتدائية لدرجة أنه تم اختياره لإلقاء قصيدة ترحيب بزيارة الملك فؤاد للمدرسة، وسُرَّ جلالته سرورًا بالغًا بالطفل محمد عودة وأهداه طاقم أدوات مكتب من الجلد الفاخر وعاد بالطقم فرحًا إلى البيت لكن والده لم يشاركه الفرحة، وكاد يطرده من البيت؛ إذ كان والده وفديًا حتى النخاع!

وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة «السعيدية الثانوية»، لكنه بدأ يشعر بالمهانة التي يعانيها أبناء الفقراء، والسبب أن أولاد الأثرياء في «السعيدية» كانت تأتيهم الساندوتشات الجاهزة بينما أبناء الفقراء يهبّون مسرعين إلى اليمكخانة (قاعة الطعام) لنيل الطعام كالقطعان -على حد وصفه- لذا أدمن الهروب من المدرسة والذهاب إلى حديقة الحيوان حتى استدعاه الناظر وسأله عن سر غيابه، وقلة تحصيله الدراسي فطلب نقله إلى فصل آخر بعيدًا عن فصل أولاد الذوات.

وتخرَّج محمد في مدرسة «السعيدية» والتحق بكلية الحقوق، لكنه ثار على نظام التعليم في الكلية، وشعر أنه يُغيِّب العقول،

فصار يتسلل إلى كلية الآداب للاستماع إلى محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب والدكتور شفيق غبريال في التاريخ.

«٣»

شقَّ عودة طريقه إلى صاحبة الجلالة بالكتابة في مجلة كانت ذائعة الصيت اسمها «مسامرات الجيب» واستمر بها حتى صدر قرار بإغلاقها، فانتقل إلى صحيفة «الجمهور المصري» بصحبة مجموعة من الموهوبين المَهَرَة الذين نجحوا في إثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك بأسلوب غير مسبوق، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها بالأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار.

ثم انتقل للعمل مذيعًا ومترجمًا في الإذاعة الهندية التي كانت تبث برامجها بالعربية من قلب العاصمة بنيودلهي، وكانت هذه أولى رحلاته خارج مصر، ويقول عنها: «إذا ذهبت إلى الهند لا بد أن تعود، وإذا عدت مرة لا بد أن تعود وتظل تعود». لكنه اضطُرَّ إلى العودة إلى مصر بعد عامين من ثورة يوليو، وعمل صحفيًا في صحيفة «الشعب»، ثم تركها إلى «دار الهلال»، لكنه لم يأنس بوجوده داخل هذه المؤسسة، فانطلق إلى «روزاليوسف»، وهناك التقى أحد أصدقائه الذي كان يعمل سكرتيرا لتحرير المجلة، فصافحه وطلب له كوبًا من الشاي ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الدشت» وقال له: «اكتب لنا شيئًا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات (روزاليوسف)»، وكتب، وعمل، فصار واحدا من نجوم «روزاليوسف»، وأحد أعمدتها.

لكن المدهش أنه من فرط حبه للصحافة أصيب بـ«الملاريا» مرتين لكثرة ذهابه إلى أماكن الأوبئة، فلم يركن إلى الجلوس خلف المكاتب، ولم يكن يهوى رحلات الاستجمام بل كان مغامرًا، ولم يكن فقط محبًّا للبسطاء بل كان واحدا منهم أيًّا كان موطنهم، وكتب مئات المقالات عنهم، لكنه لم يكتب كتبًا كثيرة فاكتفى ببضعة كتب لكنها على قلة عددها بالغة الأهمية ومن بينها: «رحلة في قلب نهرو»، و«الصين الشعبية» الذي كان أول كتاب باللغة العربية يُكتب عن الصين، وكان ذلك عام ١٩٥٢، وقد رفضته الرقابة في بادئ الأمر إلى أن وقع المخطوط الأصلي من الكتاب بين يدي عبد الناصر، ففوجئ بالرقابة تتصل به لتخبرونه بموافقة عبد الناصر على نشره كاملًا!

كان الكاتب الكبير محمد عودة نموذجًا فريدًا ودليلا دامغًا على أنه لا يزال هناك متصوفون حقيقيون يعيشون بيننا، فرغم شهرته الواسعة لم يغادر شقته التي اتخذها سكنا منذ سنوات بعيدة رغم أن المصعد لم يكن يعمل بالعقار إلا نادرًا، ويضطر عودة إلى أن يصعد على قدميه إلى الدور الثامن حيث شقته رغم أنه كان قد بلغ من الكبر عتيًّا، لكنه لم يجمع من المال ما يجعله يجد سكنًا آخر، بل لم يمتلك سيارة خاصة حتى رحيله.

شـعراء يَتَّبِعُهم الثائرون

ولنـا الدنيا هنا.. والآخرة

محمـود درويـش

الجبل المتحرك بالحب والسخرية!

«١»

لـو أن أحـدًا تـبرّع، وتفـرغ، وقـرر أن يكتـب حـوارات كامـل الشـناوي في جلسـاته الخاصـة لصـار لدينـا تـراث هائـل مـن الفكـر والفـن والسـخرية، لكـن لسـوء حظنـا أن تـراث كامـل الشـناوي أغلبـه شـفاهي، فلـم يهتـم بتدويـن مـا يقولـه، ولم يحـاول أي باحـث التنقيـب عـما جـرى في هـذه الجلسـات التـي كانـت بمثابـة تاريخ مـوازٍ للتاريـخ الرسـمي، لكنـه تاريـخ حقيقـي وتأريخـي مهـم ومختلـف ممـن حـضر، وشـهد، وشـاهد، ورصـد، وفهـم، وقـرأ، ورأى، وسـمع، وعلـم، وفـسّر، ثـم سـخر مـن كل الحـكام!

فقـد امتلـك عمنـا كامـل الشـناوي موهبـة أثقـل مـن الهـرم الأكبر، وإحساسـا أعـلى مـن بـرج الجزيـرة، ومعـاني أعمـق مـن البحـر الأحمـر، وعذوبـة أعـذب مـن مـاء النهـر، وخفـة ظـل يسـتظل بهـا الجميـع.

إنـه الجبـل المتحـرك بالحـب والسـخرية، فـكان إذا أحـب، أحـب بـلا قيـد ولا شرط، وإذا كـره، كـره بـلا قيـد ولا شرط -عـلى حـد تعبـير عمنـا محمـود السـعدني- ومـن أبـرز صفاتـه أنـه يسـتطيع أن يشـم رائحـة موهبـة عـلى بعـد ألـف ميـل، وهـو لا يشـمها فقـط ولكنـه يسـعى إليهـا، ويجذبهـا نحـوه، ويجاهـد في سـبيل أن يدفـع بهـا خطـوات إلى الأمـام.

كان يقطـر فنًـا، وأدبًـا، وسـخرية، وثقافـةً، وفكـرًا، وشـعرًا،

وإنسانيةً، وكل مَن حضر جلساته يحلف بها، ولا ينسى ما دار فيها، فقد نحت ألفاظًا جديدة، ومعاني مختلفة، وأفكارًا مبتكرة، وعبَّر عن مشاعر لم يستطع التعبير عنها غيرُه، فكلماته على الورق كان لها صوت وصدى.

هكذا ظل الشناوي منذ عمل في جريدة «كوكب الشرق» عام ١٩٣٠ وبعدها بخمس سنوات اختاره الدكتور طه حسين ليعمل معه في جريدة «الوادي»، وفي الوقت نفسه عمل في مجلات «آخر ساعة» و«الإثنين» و«المصور» وحصل على لقب «بك» من الملك فاروق، وبعد الثورة صار رئيسًا لتحرير «الأخبار»، ورغم حدته فإن خفة ظله كان تجبّ كل شيء، وفي ذات الوقت لم يكن موقفه السياسي مائعًا بل كان واضحًا، لكنه أيضًا لم يكن منتميًا إلى حزب أو جماعة، فهو حزب مستقلّ، وجماعة ضخمة!

لذلك يقول عنه أنيس منصور: «الشناوي اختار أن يكون عاشقًا للسياسة، وعاشقًا للقضايا الإنسانية، ولم يكن له لون سياسي، وإنما هو صديق الساسة، لهذا كان الثناء ينهال عليه من جميع الاتجاهات، فالجميع يتعامل معه كقيمة عظيمة فوق كل الاتجاهات والميول والأحزاب، والسر أنه معجون بالمصرية المتسمة بالتسامح والمكر وسعة الصدر».

«٢»

كان ميلاده عقب وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل، فسمّاه والده مصطفى كامل تيمُّنًا بالزعيم الوطني، وألحقه بالأزهر، لكنه لم يرتدِ العمامة والجِبّة والقفطان سوى خمس سنوات فقط بعدها هرب من حي «الحسين»، وذهب إلى

شارع «عماد الدين» حيث المسارح والسينما، ووجد ضالته في القراءة، ومجالس الأدباء، فدرس الآداب العربية والأجنبية، وصار من الهاوين والغاوين للشعر، وأعلامه، فغنّى من كلماته كبارُ مطربي عصره، من أم كلثوم إلى عبد الوهاب، من فريد الأطرش إلى عبد الحليم حافظ، ومن نجاة إلى شادية لذلك أحزن حين أجد أنه لا أحد يعرف عن كامل الشناوي سوى أنه مؤلف أغنية «لا تكذبي»، كأنه لم يكتب غيرها، وقطعًا أسهمت في ترويج هذا الشعور الأسطورة التي تكمن وراءها!

كان البعض يفكر كثيرًا قبل المرور أمام مكتب كامل الشناوي حتى لا يلمحه، ويُطلق عليه نكاته، فيصير مثارًا للسخرية، ومضربًا للأمثال بين الناس.

فقد كان عمنا كامل الشناوي من ألمع ظرفاء عصره، وكانت سخريته تطال الجميع، من الرئيس إلى الخفير، ومقالبه كانت لا تترك أحدًا، فلم يسلَم منها حتى شقيقه المعتز بالله الشناوي الذي حين تخرج محاميًا أعدت له الأسرة لافتة ضخمة كُتب فوقها «المحامي أمام المحاكم الشرعية» فتسلل كامل ليلا ليزيل كلمة «أمام» ويكتب بدلا منها «وراء» وظلت اللافتة أيامًا قبل أن ينتبه المعتز لما جرى فيها، فذهب يشكو كامل أخاه إلى والده الصارم والقاضي الشرعي، لكنه نجا من العقاب عندما فسر تصرفه بأن محل إقامتهم كان بالفعل خلف المحكمة الشرعية وليس أمامها!

وبعدما استقر الأب في القاهرة نائبًا لرئيس المحكمة الشرعية العليا، واختار لأسرته مسكنًا من طابقين في منطقة الأعيان بالسيدة زينب في جنينة ياميش، مخصِّصًا غرفة في الطابق الأسفل لابنه الأكبر كامل للتفرغ للدراسة الثانوية بالأزهر، وكان للحجرة

باب يفضي إلى الشارع تأتي منه شلة الأنس ومن بينهم محمود المليجي وزكي طليمات وفتحي رضوان وغيرهم من نجوم الفن والسياسة، وفي أحد الأيام دخل والده الغرفة فوجده يلعب الورق مع أصدقائه، وجُنَّ جنون القاضي الشرعي، وصرخ بأعلى صوته: «بتلعبوا قمار.. وفي بيتي؟!!» وارتجّ كامل للمفاجأة لكنه سارع، قائلا: «أبدا يا بابا.. إحنا بنلعب بوكر»!

فخفت صوت الأب، وقال: «أوعى يا ابني يكون قمار».. فقال كامل: «والله العظيم بوكر يا بابا»!!

«٣»

سأل المرحوم تقلا، مؤسس جريدة «الأهرام»، العم كامل الشناوي عما إذا كان له أصدقاء من الوزراء، فأجابه كامل الشناوي بعفوية: «إنني أسهر كل ليلة مع محمد محمود باشا»!

فخبط تقلا باشا كفًّا بكفّ، فأمامه صحفي يصادق رئيس الوزراء، ثم يكتب في جريدته شعرًا!

فصرخ تقلا في كامل وشرح له أن هذا هو أهم مصدر صحفي في مصر، ويجب أن يكون ذكيا وقادرا على التقاط الأخبار التي تُقال أمامه، وبالفعل ذهب كامل وحصل على خبطة صحفية كبرى لـ«الأهرام»، وأدرك محمد محمود باشا أن مَن سرَّب الخبر هو كامل الشناوي فقرر أن يلقنه درسًا لم ينسه! فذات مساء وفي أثناء جلوس كامل بصحبة رئيس الوزراء سمعه يقول: «إن جوبلز وزير الدعاية في حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرًّا، ونزل في فندق سميراميس»، فطار كامل ليبلغ تقلا بما جرى، لكن مؤسس «الأهرام» تشكك في المعلومة، فبحث وتقصّى وتحرّى

حتى أدرك أنه فخ نصبه رئيس الوزراء ليصطاد كامل الشناوي!

ربما هذه المرة الوحيدة التي صار فيها الشناوي صيدًا، فهو دائمًا يلعب دور الصياد، أينما ذهب أو حل، لكنه حين حلل نفسه بالأرقام من واحد لعشرة أعطى نفسه في الشجاعة ٦، والصدق ٨، والحب ١٠، والغيرة ٧، والغضب ٢، والأناقة ١، والشكل صفر!

وحين سألته الإعلامية آمال فهمي: ما الشيء الوحيد الذي جاملك فيه الزمن؟ فأجاب: «سواد شعري»!

وقبل رحيله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ رثى نفسه قائلا:

إذن حان حيني وانتهى العمر

إنه عزيز على نفسي فراق حياتيا

أمثوايَ في لَحْدٍ من الأرض ضيق

وما كنتُ بالدنيا العريضة راضيًا؟

الاستثنائي!

«١»

«ما دام فينا رجل له كل هذه اللماحية والذكاء والوعي والعبث والمرح والقدرة على التلخيص والتواصل، وما دام قادرًا على إبداع رسوم كهذه، فلا بد أن الحياة ما زال فيها ما يستحق أن نعيشه»!

هكذا كان عمنا صلاح جاهين، مثلما وصفه عمنا محيي الدين اللباد.

جاهين كان رقمًا قياسيًّا في كل شيء، في الكاريكاتير، والشِّعر، والسيناريو، والمقال، والكتابة الساخرة، وصناعة الأفلام علاوة على قدرته الخارقة على اكتشاف أصحاب المواهب أو تلميعهم وتغيير مسارهم، وجعلهم يتصدرون المشهد.

رغم قدرات جاهين الاستثنائية في صناعة الابتسامة على وجوه الناس فإنه أيضًا كان بمثابة الملهِم؛ فقد كان الشاعر الكبير أمل دنقل في رحلة مرضه لا يتناول الدواء إلا وهو يسمع «رباعيات» صلاح جاهين.

جاهين ترك بصمة بارزة في كل مَن عرفه، وكان بمثابة أكاديمية فنون تسير على قدمين، فقد تبنَّى عددًا هائلا من المواهب، لعل أشهرها سعاد حسني ونيلي وأحمد زكي، لكن إنسانية جاهين غلبت فنَّه، فذات يوم حدث خلاف بين أحمد زكي وزوجته، ترتَّب عليه أن تركت الزوجة البيت، ولم تفلح

محاولات الصلح بينهما، وفي ذات التوقيت كان جاهين قد خرج لتوّه من عملية جراحية في القلب، لكنه بمجرد أن خرج من المستشفى اتصل بأحمد زكي، وقال له: «لو فاضي تعالى عشان عايز أروح إسكندرية»، وبالفعل اتجها إلى الإسكندرية وبمجرد أن وصلا أخرج جاهين ورقة من جيبه فيها عنوان، وظل يسأل عنه حتى وصلا إلى العنوان المطلوب، وبمجرد أن طرق جاهين الباب وجد زكي نفسَه يقف أمام حماه، وأصلح صلاح بين أحمد زكي وزوجته، وأصر على أن يعود إلى القاهرة وحده في نفس اليوم.

«٢»

انطلق في طريق النجاح كالشهاب، لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة، لكن شِعْره الشعبي بشَّر بالثورة قبل أن توجد، وزكّاه أنه عُرِف ببُعده عن الأحزاب، وهو من ناحيته وبتلقائية وإخلاص، كرَّس شِعره للثورة، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعري في أجمل صوره، ثم سرعان ما يترجَم إلى غناء تردده الإذاعة والتليفزيون... تلك هي الصورة التي رسمها نجيب محفوظ برؤيته الثاقبة في رواية «قشتمر» لعلاقة صلاح جاهين أو «طاهر عبيد» بالثورة ورجالها، تلك الصورة التي التقطها محفوظ لا تختلف كثيراً عن الواقع لأن جاهين أحبَّ جمال عبد الناصر قبل أن يلتقيا، بل كانت أشعاره التي كتبها دعوة صريحة للثورة.

وحين قامت الثورة كان الثلاثي «عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وجاهين» يلتقون في بداية شهر يونيو من كل عام

لتحضير أغنية جديدة، وظل الثلاثي على العهد حتى مرض والد جاهين بالسرطان، ولم يتحمل صلاح الخبر واختفى تمامًا وحاولت أسرته الوصول إليه دون جدوى لمدة عشرة أيام، بعدها أقسمت بهيجة «أخته» أن «حليم هو اللي مخبيه»، فذهبتْ إلى بيته وقالت له: «عاوزين صلاح ضروري، أبوه تعبان ومحتاج يشوفه وانت مخبيه عندك»، فقال حليم: «والله هوَّ ما عندي ولا حتى شفته.. ادخلي دوَّري عليه، وعمومًا أنا هاجيبه لحدّ عندك»، وبالفعل أحضره في اليوم التالي بعد أن نشر إعلانًا في «الأهرام» يقول فيه: «ارجع يا صلاح.. أهلك بيدوَّروا عليك».

عاد جاهين إلى بيته!

حين اعتلى الرئيس السادات كرسي الحكم في مصر، ظن أن جاهين سوف يناصره، إلا أنه فوجئ بأن «مافيش بينهم كيميا»، فقد كان صلاح لا يحب السادات بل كان يعانده بكتابة قصيدة جديدة في «الأهرام» كل عام في ذكرى وفاة عبد الناصر، مما أغضب السادات بشدة وجعله يرسل إليه واحدًا من رجال الحكم كان معروفًا بلباقته ليبلغه رسالة تقول: «الرئيس بيقولك انت مابتكتبش عنه ليه؟»، وكان رد جاهين: «والله أنا مش ترزي»!

«٣»

أنا من جيل «بوجي وطمطم» و«أبريق الشاي»، الجيل الذي تربَّى على أن رمضان لا يأتي دون أغاني صلاح جاهين، وحفظ «صباح الخير يا مولاتي»، وكان يردد «المصريين أهمَّه»، الجيل الذي كان -ولا يزال- يذهب لمشاهدة «الليلة الكبيرة»

ولا يعـرف أن صاحبهـا انتهـى مـن كتابتهـا عـام ١٩٥٧م، ليشـاهدها الأطفـال مـع افتتـاح التليفزيـون في يوليـو ١٩٦٠م، وأنهـا اشـتركت في مسـابقة أوروبـا الشرقيـة في نفـس العـام وحصـدت كل الجوائـز المخصصـة لأعـمال الأطفـال، لكـن أكـبر جائـزة حصـل عليهـا جاهـين ورفاقـه عـن «الليلـة الكبـيرة» هـى أنهـا ظلـت عـلى مـدار خمسـين عامًـا أكـثر عمـل درامـي غنـائي تعلقـت بـه قلـوب الأطفـال في تاريـخ مـسرح العرائـس، فكلنـا مـا زال يحفـظ في ذاكرتـه، رغـم أعبـاء الحيـاة، «الليلـة الكبـيرة يـا عمـى والعـالم كتـيرة»، بـل إن بعضنـا يحتفـظ بهـذا الأوبريـت الفـذ عـلى الكمبيوتـر ليشـاهده مـع أبنائـه، ولكـن الغريـب في هـذا العمـل أن جاهـين نفسـه كان يـرى أن «الليلـة الكبـيرة» خرجـت أفضـل مـما توقّـع وعاشـت أكـثر مـما خطـط!

وعندمـا اسـتقر في القاهـرة جمعتـه الصدفـة بالفنـان سـيد مـكاوي لتنشـأ بينهـما صداقـة قلّـما تتكـرر؛ فقـد كان جاهـين يصـف علاقتـه بمـكاوي بـ«العسـل والطحينـة»؛ فكانـا يذهبـان إلى الموالـد في كل مـكان وعـلى رأسـها مولـد «السـيدة زينـب»، ويجلسـان معًـا بالسـاعات الطويلـة في شـقة جاهـين في ميـدان لاظوغـلى لتجهيـز «الليلـة الكبـيرة» وغيرهـا مـن الأعـمال التـي جمعتهـما، ولكـن أطـرف مـا في هـذه اللقـاءات أنهـما في إحـدى المـرات «كانـوا بيهـزروا وبيضحكـوا»، فألفّـا ولحّنـا الأغنيـة الشـهيرة: «يـا صهبجيـة.. إيـه يـا لا لـلّي».

لذلـك عندمـا سـألته مذيعـة: لـو هتعيـش في جزيـرة لوحـدك ومسـموح لـك تاخـد شـخص واحـد معـاك.. تاخـد مـين؟ قـال: سـيد مـكاوي.

«٤»

في الوقت الذي كان يحتفل فيه العلماء باكتشاف كوكب جديد في المجموعة الشمسية هو كوكب بلوتو، كانت صرخات سيدة تدعى أمينة تنطلق في كل مكان داخل بيت من أربعة أدوار يملكه الصحفي أحمد حلمي في شارع «جميل باشا» بشبرا، تلك الصرخات التي كان سببها الولادة المتعثرة بشدة -كأن المولود يرفض أن يخرج إلى الدنيا- التي جعلت المولود لا يصرخ فور ولادته؛ ليظن الجميع أنه قد وُلد ميتًا!

لكن في هذه اللحظات صرخ المولود «محمد صلاح الدين» بعد ولادة متعثرة، وأكد علماء النفس أن تلك اللحظات تركت آثارها على شخصيته وتسببت له في عدم استقرار الحالة المزاجية، فجعلته عندما يفرح يكاد يطير وعندما يحزن يصل إلى درجة الاكتئاب، إنها علامات النبوغ التي اتصف بها صلاح جاهين.

ظلت الحالة المزاجية لجاهين تتأرجح حتى ليلة ١٦ من أبريل عام ١٩٨٦... ليلة الغارة الجوية الأمريكية على ليبيا والتي سقط فيها المدنيون، دخل جاهين غيبوبة الموت التي كانت كل الأحداث المحيطة به تدفعه إليها؛ فتلاميذه الذين صنعهم تطاولوا عليه، والمسؤولون عن المسرح القومي سحبوا مسرحيته «إيزيس» في الوقت الذي كانت فيه تحقق أعلى إيرادات في تاريخ القطاع العام، ليضعوا بدلا منها مسرحية «مجنون ليلى» التي لم يشاهدها أحد، ويومها عبَّر عن ذلك بكاريكاتير في الصفحة التاسعة بجريدة «الأهرام» ينتقد فيه المسرحية.

ولم تتوقف المصائب عند هذا الحد، بل إنه عندما دقّت الفرحة أبواب قلبه بعد صدور الديوان الأول «الرقص في زحمة المرور» لابنه بهاء تم وأد هذه الفرحة في مهدها، لأنه في هذه الأثناء وقعت أحداث شغب تسببت في حرق ملاهي شارع الهرم فقام كرسام كاريكاتير بالربط بين أحداث الشغب واسم ديوان بهاء، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا من زحمة المرور»، لكنه فوجئ بأن تم حذف أسم بهاء من الكاريكاتير على يد المسؤول عن الديسك المركزي، ويومها ردّ جاهين على مَن انتقدوه لأنه يروّج لديوان ابنه قائلا: «والله يا جماعة أنا لو شفت أن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف»، ولكن هذه الواقعة لم تمر مرور الكرام بل تركت أثرًا نفسيًّا بداخله.

رحل جاهين وهو يحلم أن يبني مسرحًا مثل شكسبير يقدم فيه ما يريد دون قيود أو ضغوط، لكنه عاش ومات لا يملك من حطام الدنيا سوى أرصدة في القلوب وليست في البنوك.

رحل جاهين بعد أن زار الكعبة، لتبكي عليه الأرض التي أضحكها قبل البسطاء الذين عشقوه.

رحل صلاح الإنسان، وبقي جاهين المبدع الذي تتردد أغانيه في كل المناسبات من عيد الأم إلى عيد الربيع، وتتصدر رباعياته مبيعات سوق الكتب؛ لتعلم الدنيا بأسرها أنه ما زال يحيا بيننا وتظل وصيته تتناقلها الأجيال:

أوصيك يا ابني بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإنْ جيت في بالك.. اشتري عُقد فُلّ
لأي سَمْرَا.. وقبري إوْعَك تزور

فارس هذا الزمان الوحيد

«١»

في عام ١٩٤٠ وقف علي ماهر باشا رئيس الوزراء، أمام البرلمان، وأعلن أن مصر سوف تقوم بتقديم المعونة لبريطانيا!

في هذا العام وُلد الشاعر الفذّ أمل دنقل، لكن حين رحل -قبل أن يُكمل عامه الثالث والأربعين- كانت مصر تنتظر حظها من المعونة التي تأتي لها سنويًّا من أمريكا!

لكن ظل البعض يردد ما قاله أمل:

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

ولا أحد يتصور أن هذه القصيدة الأشهر في تاريخ أمل دنقل قد كتبها في نوفمبر من عام ١٩٧٦، أي قبل أن يعلن الرئيس السادات عن نيته الذهاب إلى إسرائيل، كأنه كان يقرأ الطالع السياسي للرئيس، لذلك لو أن هناك شاعرًا واحدًا ملهَمًا لكان -بلا جدال أو نقاش- أمل دنقل.

هو معجزة لدرجة أنك تعجز عن وصفه!

فلو حصل على نصف حقه فقط ربما لظلت وسائل الإعلام تتحدث عنه ليل نهار بلا انقطاع، فمروره على الدنيا دليل أن عصر المعجزات لم ينتهِ.

فلا يحتاج إلى لقب أو تعريف أو تقديم، ولا يمكن أن تضع له منطق الأناس العاديين فهو استثناء منذ خلقه الله، ولا

يجـوز أن تضـع معايـير لتقييمـه، فهـو حالـة فريـدة يجـب دراسـتها بشـكل منفـرد.

فقـد ظـل أمـل دائمًـا يـرى مـا لا يـراه سـواه، ويحلـم بالمسـتحيل لكنـه لا يحلـم لنفسـه، فحلمـه مرتبـط بوطنـه، لذلـك حـين رحـل نعـاه الفـذ يوسـف إدريـس قائـلا: «لـن أطلـب منكـم الوقـوف دقيقـة حـدادًا، فنحـن إذا وقفنـا حـدادًا، سـيكون الحـداد عـلى عصر طويـل قـادم، حـدادا عـلى العـصر الـذي سـيمضي حتـى يشبّ فيـه رجـال لهـم شـيم الرجـال الذيـن كانّ يراهـم أمـل دنقـل، وكـرم الرجـال الذيـن كان يحلـم بهـم أمـل دنقـل، وشرف ونبـل وإنسـانية وشـجاعة ورقـة الرجـال الذيـن استشـهد أمـل دنقـل وهـو يراهـم، ويحلـم برؤيتهـم».

«٢»

«هـو فوضـوي يحكمـه المنطـق، بسـيط في تركيبـة شـديدة، صريـح وخفـيّ في آن واحـد، انفعـالي متطـرف في جـرأة ووضـوح، وكتـوم لا تـدرك مـا في داخلـه أبـدًا.

يمـلأ الأماكـن ضجيجًـا، وصخبًـا، وسـخرية، وضحـكا، ومزاحًـا. صامـت إلى حـد الـشرود يفكـر مرتـين، وثلاثًـا في ردود أفعالـه وأفعـال الآخريـن، حزيـن حزنًـا لا ينتهـي.

استعراضيٌّ يتيـه بنفسـه في كبريـاء لافـت للأنظـار. بسـيط بسـاطة طبيعيـة يخجـل معهـا إذا أطريتـه وأطريـت شـعره، وربمـا يحتـد عـلى مديحـك خوفًـا مـن اكتشـاف منطقـة الخجـل فيـه.

صخـريٌّ شـديد الصلابـة، لا يخـشى شـيئًا ولا يعـرف الخـوف أبـدا، لكـن مـن السـهل إيـلام قلبـه.

صعيدي محافظ، عنيد لا يتزحزح عما في رأسه، وقضيته دائمًا هي الحرية، ومشواره الدائم يبدأ بالخروج.

عاشق للحياة، مقاوم عنيد، يحلم بالمستقبل والغد الأجمل، ولا يحب منطقة الوسط، ولا ينتمي إلى المناطق الرمادية، ويمقت الحلول الوسط، إنه يتلف كل الألوان ليظل الأبيض والأسود وحدهما في حياته. هارب دائمًا من كل مناطق الحياد التي تقتله».

هذا هو أمل دنقل كما عرفَتْه ورأتْه ووصفتْه أرملته المبدعة البديعة عبلة الرويني أقرب الأحياء إلى قلبه، فأمل حالة خاصة، ولون إبداعي فريد، وشخصية يصعب وصفها أو تكرارها.

«٣»

فقدَ أمل كثيرين في رحلة حياته القصيرة، في السابعة عرف أمل فَقْدَ الأخت، وفي سن العاشرة عرف فَقْدَ الأب، وقبل أن يبلغ السادسة عشرة -في عام ١٩٥٦- تدرب أمل دنقل على حمل السلاح!

وقتها أعلنت المدرسة أنها ستقوم بالتعاون مع الجيش بتدريب الطلاب على السلاح حتى يستطيعوا الاشتراك في المعركة ضد العدوان الثلاثي على بورسعيد الباسلة.

فسارع أمل دنقل بالاشتراك في التدريب في «حوش المدرسة»، وبالفعل ظل التدريب قائمًا عدة أيام حتى أجاد التعامل مع السلاح، لكن بعد انتهاء فترة التدريب تم إبلاغه بأنه سيعمل في الدفاع المدني، فطغى الحزن عليه، وشعر أنه بحاجة ماسة إلى أن يعبِّر عن انفعالاته، وأن لديه ما يقوله، فوجد نفسه

يكتب أول قصيدة في حياته، ليكتشف أن بذرة الشِّعر تعيش داخله، وقرر في هذه اللحظة أن يحارب بالقصيدة.

في هذه الأثناء كان أمل ما زال طالبًا في المدرسة الثانوية، وفجأة هبط إلى فصله مدرِّس حضر لتوِّه من القاهرة، وقال: «أنا اسمي توفيق حنَّا، وهادرِّس لكم فرنساوي».

كان توفيق حنَّا بمثابة نقطة التحول الأهم في حياة أمل دنقل، فقد كان يحكي له عن القاهرة، وعن كبار الأدباء والمثقفين، وكان ذلك عالَمًا مجهولا لتلميذ في ثانوي.

وتفتَّح وعي أمل وحصل على الثانوية، وترك المدرسة، وذهب إلى جامعة القاهرة -بصحبة صديق عمره عبد الرحمن الأبنودي- وحينذاك كانت القاهرة حافلة بكل الأنشطة السياسية والثقافية، فنسيَا في صخب القاهرة أنهما طالبَين في الجامعة حين شغلتهما الثقافة عن الدراسة.

وعادَا إلى قنا للتفرغ للشعر والقراءة، وعمل الأبنودي في المحكمة ككاتب جلسة، في حين تسلم أمل عمله كمُحضَر في المحكمة -وكان من مهام وظيفته أن يقوم بتنفيذ أمر المحكمة بالحجز على ممتلكات الناس- لكنهما استقالا بعد أن تحملا كمًّا هائلا من السخافات طوال فترة عملهما في هذه الوظيفة ثقيلة الظل.

وعاد الاثنان إلى رشدهما ورجعا إلى القاهرة، وظلا يناضلان فيها حتى صار كلاهما بمثابة معجزة شعرية كبرى، وصار لكلٍّ منهما مدرسة لها مريدون من المحيط إلى الخليج، أحدهما صار من علامات الشِّعر العامِّي، والآخر صار يُدرَّس شعره في أقسام اللغة العربية لطلاب الجامعات.

لكن الأهم أنهما ظلا صديقين حتى الرمق الأخير في حياة

أمل دنقل، لكن المدهش أن أمل في هذا اللقاء قبل الأخير قال للخال: «أنا سمعت لك غنوة كنت عاملها لمحمد قنديل في عيد الربيع وماسمعتهاش تاني، أنا عايز الغنوة دي دلوقتي».

فتعجب الخال وسأله: «اسمها إيه؟»، فقال: «ناعسة».

الغريب أن الأبنودي لم يتذكر الأغنية مطلقًا، وسأل عنها كل الملحنين الذين تعاون معهم، حتى وجدها لدى حلمي أمين الموجي، وكانت تائهة وسط الشرائط، وظل يبحث عنها حتى وجدها.

وذهب الأبنودي لأمل، ليسمع الأغنية التي طلبها، وكانت تقول:

ويا ناعسة لا لا.. لا لا
خِلْصِت معايا القِوَالة
والسهم اللي رماني
قاتلني لا محالة!!

كأن أمل كان يقرأ نفسه في هذه الغنوة، فالسهم قد أصابه، ولا محالة.

الشِّعر ذاته

«١»

في ١٦ يونيو ٢٠١١ كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها الخال وأجلس معه.

يومها ذهبت إليه في بيته في الضبعية في الإسماعيلية بتكليف من الأستاذ إبراهيم عيسى لأحصل منه على أحدث قصيدة كتبها لننشرها في جريدة «التحرير» في الأعداد الأولى.

القصيدة كانت «لسّه النظام ماسقطش»، عنوانها كان لافتًا، فلم يكن وقتها بعد شهور قليلة من ثورة يناير قد التفت أحد إلى أن النظام القائم هو امتداد للنظام السابق الذي ثار الشعب عليه، لذلك أمسكت بالورق الذي سطر عليه الخال قصيدته لأقرأ ما فيه لكنه أمسك الورق من يدي، وأعاده إلى المنضدة التي أمامه مقلوبًا!

كان هدفه أن لا أقرأ أمامه، ثم قال لي: «اقرأ لما تمشي، وابقى كلمني قول لي رأيك».

اندهشتُ لكني التزمتُ بما قاله الخال، فقد كنت أحمل في ذهني طوال طريقي إليه كل ما قيل عنه، من ثناء عظيم، ونقد حاد.

لكن أكثر ما جال بخاطري هو ما كتبه الأديب خيري شلبي عنه حين قال: «الأبنودي يوضَع في كفة، وجميع شعراء جيله -فصحى وعامية على السواء- في كفة... حقًّا إن كل شعراء جيله

على درجة كبيرة من الموهبة، أما هو فإنه نَفَسٌ شِعريٌ خاص، تيار كامل، مدرسة، لا أقول إنه موهوب بل أقول إنه الشِّعر ذاته، خلقه الله أصلا ليكون شاعرًا».

قرأتُ ما كتبه خيري شلبي عشرات المرات، فكان بدهيًّا أن أذكره، وأتذكره، وأنا في طريقي إلى الإسماعيلية لمقابلة الخال، لذلك كنت أدرك قيمة وأهمية وروعة أن أكون أول من يقرأ واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبنودي، كنت شغوفًا جدًّا لقراءة القصيدة في أسرع وقت ممكن، فانتهيت من قراءتها قبل أن أصل إلى القاهرة، وتوقفت كثيرًا عنده قوله:

الثورة كالزحلفة.. ولكنها ثورة
كإنها لعبة ولعبناها في محاورة..
كسبنا دَوْرة.. وغيرنا كسبوا ميت دَوْرة
وإن جيتوا للجد.. قَدَم الثورة مشلولة
الثورة.. لازِمْها ثورة أقوى من الأولى

المدهش أن الخال كان مهتمًّا أن يسمع رأيي في الملحمة البديعة، وكنت مندهشًا من سعادته برأيي، فهل كان يحتاج إلى رأي شاب لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره في واحدة من أبدع قصائده؟ هل يصل إلى هذه الدرجة من التواضع؟ هل مَن كان يسمع رأي صلاح جاهين وفؤاد حداد وأمل دنقل ونزار قباني ومحمود درويش يمكن أن يسمع رأي أحد بعد رحيلهم؟!

الأسئلة لم تنتهِ، لكنها بدأت.

«٢»

وتعـددت اللقـاءات بينـي وبـين الخـال، وصـار بيننـا تواصـل دائـم، واتصـال شـبه يومـي، وتأكـدت بعـد أن توثقـتْ علاقتـي بـه أنـه شـديد الخجـل حـين يسـمع مَـن يُثنـي عليـه، وأنـه حـين ينتهـي مـن كتابـة قصيـدة جديـدة ينتظـر آراء العـوام فيهـا قبـل آراء المتخصصـين، ويُنصـت حـين يسـمع هـذه الآراء بصـورة تدعـو إلى الحـيرة والدهشـة.

لكنه الإخلاص وحده.

فهـو حـين يكتـب جديـدًا لا يعتمـد عـلى رصيـده الضخـم في قلـوب محبيـه، بـل إنـه يريـد أن يعيـد اكتشـاف نفسـه وموهبتـه الفـذة مـع كل كلمـة يكتبهـا، وهـذه هـي القيمـة الحقيقيـة لعبـد الرحمـن الأبنـودي ذلـك المَعين الـذي لا ينضـب، رغـم أن أمثالـه مـن نجـوم الشِّـعر يكتفـون بمـا قدمـوه، وهـو بالفعـل يكفيهـم.

لكـن هـذا هـو عبـد الرحمـن الأبنـودي الـذي أحبَّـه الشـعب المـصري لبسـاطته، قبـل شِـعره، لكنـي عرفـت الخـال عـن قـرب تمـام المعرفـة عـبر «المربعـات» التـي تعـد أكـبر ملحمـة شـعرية لـو نظرنـا إليهـا نظـرة فاحصـة وموسـوعية.

فقـد أرّخـت لعـام كامـل في تاريـخ مـصر، ولم نعهـد مثـل هـذا التأريـخ بطـول التاريـخ وعرضـه، ولم نعـرف تأريخًـا مشـابهًا سـوى تاريـخ الجـبرتي الـذي كتبـه نـثرًا، بينـما كتبـه الخـال شِـعرًا لتوثيـق كل مـا جـرى في مـصر يومًـا بعـد يـوم ولمـدة عـام كامـل، لم يكـن يتصـور الأبنـودي في بدايتـه أنـه يمكـن أن يسـتمر أكـثر مـن ثلاثـة أشـهر -مـن تجربـة اسـتثنائية لا يمكـن تكرارهـا- في كتابـة شـعر

يوميًا.

لكن للمربعات قصة وتفاصيل شاء القدر أن أكون شاهدًا عليها.

البداية كانت عندما اتصلتُ بالخال، أطمئن عليه، وأسأله عن صحته وأحواله، ففاجأني وقال لي: «أنا لقيت نفسي باكتب حاجة كده عايزك تسمعها»، وقال:

إحنا ماطردناش مبارك
ولا حطّيناه في سجن
بُصّ في الجورنال.. مبارك
نَفسه.. بس طلع له دقن!!

وصفّقتُ للخال واستأذنتُه في نشرها في جريدة «التحرير»، فوافق متكرمًا، واتصلت بالأستاذ إبراهيم عيسى الذي طار فرحًا بهذه الرباعية -التي لم يكن الخال قد أطلق عليها اسم مربع- واحتفى بها -كعادته في الاحتفاء بالمبدعين- في الصفحة الأولى من جريدة «التحرير».

وبدأ الأستاذ إبراهيم يتواصل مع الخال ليكتب في «التحرير، واتفقا على أن يحصل الخال على فرصة لمدة أسبوع للتفكير، للرد إذا كان يستطيع الكتابة أم لا، لكن بعد ثلاثة أيام فقط كان رد الخال جاهزًا وحاسمًا وقال: «أنا جاهز.. أنا هاكتب مربعات.. كل يوم مربع».

كان الخال خلال يومين فقط قد كتب عددًا هائلا من المربعات، فتذكرتُ ما قاله عنه خيري شلبي «إنه لا يعاني من الكتابة ولا يبذل جهودًا مضنية في الإبداع إنما هو يمتاح من بئر ليست تنفد».

«٣»

وبـدأت رحلـة «المربعـات» اليوميـة، وقـرر الخـال أن يلاحـق الأحـداث بشِـعره، فعندمـا كـثرت خطابـات الرئيـس محمـد مـرسي، وقلّـت أفعالـه كتـب يقـول:

وعَازْلينّـي عن الدنيا
بقيـت ماعرفش شيء عنكم
كأني رئيـس بلد تانية!!
بقيـت باخْطُب بدل ما احْكُم

استمرت المربعـات، وصـار اتصـالي بالخـال كل يـوم، مـرة ومرتـين، وأحيانًـا ثلاثًـا ولم أجـد في حيـاتي أَحْـرَص مـن الخـال عـلى مـا يكتبـه، فهـو يُراجـع ويُدقّـق ويُفنّـد ويُفكـر ويـدرس ولا يـكلّ ولا يمـلّ مـن مراجعـة كل شيء بدقـة بالغـة.

ففـي كل يـوم يصـل «المربـع» عـلى الفاكـس ثـم نقـوم بكتابتـه عـلى الكمبيوتـر، ومراجعتـه ثـم إرسـاله إليـه ليتأكـد مـن كل كلمـة وحـرف وتشـكيل موضـوع فـوق الحـروف، ثـم بعـد ذلـك يعيـد إرسـال المربـع مـرة أخـرى بتعديلاتـه، وربمـا تتغـير الأحـداث في دقائـق، فيرسـل مربعـا آخـر، فيمـرّ بنفـس دائـرة العمـل.

وكان الخـال يرسـل المربعـات بأكـثر مـن طريقـة، فهـو يرسـل سـبعة مربعـات كل يـوم جمعـة، ليتـم نشرهـا عـلى مـدار الأسـبوع، لكنـه كان يقـوم بإرسـال مربعـات أخـرى طـوال أيـام الأسـبوع خصوصـا أن الأحـداث كانـت متلاحقـة، وقـد أراد أن يؤرخهـا شـعرًا. ولعـل أكـثر المربعـات انتشـارًا عـلى صفحـات التواصـل الاجتماعـى هـو مـا قالـه بعـد ثـورة ٣٠ يونيـو التـي وقـف فيهـا العـالم أمـام

إرادة الشعب المصري، وحاولت دول كثيرة أن تعيد الإخوان إلى الصورة وإلى الكرسي لكن جاء الرد من الخال قاطعًا بقوله:

لا أمريكاني.. وَلاَ ألماني..

ولا إيراني.. وَلاَ أردوغاني..

ولا قَطَر ولا مِيتْ آل ثاني..

حَيْرجَّعُوا (العَرْش) الإخواني!!

صوتُ درويش وسوطُه!

«١»

في ليلة الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ انطلق الرصاص من كل حدب وصوب في قرية «البروة» التي تقع شرق عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها، ويعيش بها ١٤٦٠ نسمة.

لم تميز طلقات الرصاص بين صغير أو كبير، ووجد الطفل ذو السنوات السبع نفسه يعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء مشيًا على الأقدام حينًا، وزحفًا على البطن حينًا، وبعد ليلة مليئة بالذعر والعطش وجد نفسه مع أسرته في بلد اسمه لبنان!

الطفل الذي سمع صوت الرصاص، وجرى في الظلام في الأحراش، لم يعد يهاب الموت الذي كان يطارده في هذه الليلة، وظل هذا المشهد محفورًا في ذاكرته، لكنه لم يجعل روح اليأس تتسرب إلى نفسه، مثلما تسربت إلى من نفوس مَن قبله، بل صار حاملا لشعلة الأمل، وحب الحياة، وقد بدا ذلك جليًا في كل أعماله ليكون بمثابة موجة ثورية على اليأس الذي أصاب الشعراء في الوطن العربي وتحديدًا في فلسطين المحتلة عقب نكبة ١٩٤٨.

كان ذلك الطفل الذي رأى الموت بعينيه هو محمود درويش الشاعر الذي بعث بالأمل، وبثَّ التفاؤل، ولم يقنط، ولم يفزع، ولم يجزع حين تعرض للنفي خارج وطنه، وحين أُلقيَ في

غياهب سجون الاحتلال للمرة الأولى في عام ١٩٦١. ظل كما هو باحثًا عن الأمل وباعثًا له، وخرج ليكتب ديوانه الأول «أوراق الزيتون»، وقال مخاطبًا العدو:

سجِّل.. برأسِ الصفحةِ الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد
ولكني.. إذا ما جعتُ
آكلُ لحمَ مغتصبي
حذارِ.. حذارِ.. من جوعي
ومن غضبي

المدهش أنه رغم روعة وبلاغة إحساس هذه القصيدة، فإن محمود درويش كان يغضب بشدة حين يختزله البعض في هذه القصيدة أو غيرها، خصوصًا أنه كان يعتبرها مجرد بداية لشاب لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، رغم أن هذا الديوان لم يكن ديوانه الأول، فأول ديوان مطبوع له كان يحمل اسم «عصافير بلا أجنحة»، لكن درويش كان يرى أن هذا الديوان لا يستحق الوقوف أمامه!

جرأة غير مسبوقة أن يتجاهل شاعر عمله الأول ويعترف بضعفه، ويعتبره مجرد محاولات لم تنجح، بل إنه لا يذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر، ولا يذكر الحافز المباشر لكتابة «القصيدة الأولى» في حياته الشعرية، لا يذكر سوى أنه حاول في سن مبكرة كتابة قصيدة طويلة عن عودته إلى الوطن، لكنه يقول عنها «أثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار»!

«٢»

ولكنـي تعرفـت عـلى شـعر محمـود درويـش بالصدفـة حـين دخـل أسـتاذ اللغـة العربيـة إلى فصـل أولى أول يبحـث عـن طالـب يمثـل المدرسـة في مسـابقة إلقـاء الشِّـعر عـلى مسـتوى الإدارة التعليميـة، فوقفـتُ ووقـف زميـل لي، لكنـي لم أدرك معنـى كلمـة إلقـاء التـي قالهـا الأسـتاذ، لذلـك انتظـرتُ حتـى انتهـى زميـلي مـن إلقـاء قصيـدة «النيـل» التـي كنـا ندرسـها في الشـهادة الابتدائيـة، وفعلـت نفـس مـا فعلـه زميـلي وألقيـت نفـس القصيـدة التـي لم أكـن أحفـظ سـواها!

فاختـارني الأسـتاذ لأمثِّـل المدرسـة في المسـابقة التـي لم تفـز بهـا المدرسـة منـذ ١١ عامًـا، واختـار لي الأسـتاذ قصيـدة أخـرى لألقيهـا في المسـابقة، وكانـت هـذه القصيـدة هـي قصيـدة «عـن إنسـان» لمحمـود درويـش، كانـت المـرة الأولى التـي أسـمع فيهـا اسـمه، وكانـت كلـمات القصيـدة بالنسـبة إلى تلميـذ في أولى إعـدادي تحتـاج إلى شرح وتفسـير، وقـد أفـاض الأسـتاذ في شرحهـا حتـى صرت أحفظهـا عـن ظهـر قلـب، بـل إننـي مـا زلـت أحفـظ طريقـة إلقـائي لهـا حتـى الآن.

وفـزتُ بالجائـزة، وحصلـت عـلى شـهادة تقديـر، وشـهادة اسـتثمار قيمتهـا عـشرة جنيهـات، وتعلقـتُ بمحمـود درويـش، وصرتُ أبحـث عـن كل أعمالـه، وقـرأتُ أغلـب أعمالـه قبـل أن أحصـل عـلى الشـهادة الإعداديـة، وصـارت ذائقتـي الشـعرية لا تحتمـل أنصـاف الشـعراء!

ولم يعـد محمـود درويـش بالنسـبة إليّ مجـرد شـاعر، بـل صـار هـو الشِّـعر ذاتـه لسـنوات، رغـم أني كنـت أقـرأ جاهـين والأبنـودي

ونـزار قبـاني وأمـل دنقـل، بـل إن القـراءة الوحيـدة التـي لا أبـذل فيهـا أي جهـد ولا يصيبنـي فيهـا أي كلـل أو ملـل هـي قـراءة الشـعر، فـأي ديـوان مهـما كـبر حجمـه لا يمكـن أن يسـتغرق منـي أكـثر مـن ليلـة واحـدة في قراءتـه، بـل إن عـددًا كبـيرًا مـن دواويـن الشِّـعر التـي أشـتريها كنـت انتهـي مـن قراءتهـا قبـل أن أصـل إلى البيـت، والفضـل الأول في كل هـذا هـو لمحمـود درويـش، لذلـك كنـت ألقـي أشـعاره في كل مناسـبة، وأحيانًـا كثـيرة دون مناسـبة!

وكـبرت، وكـبر معـى حبـي لـه، فـكان يكفينـي أن أراه ولـو مـن بعيـد، كان يسـعدني سـماع صوتـه مبـاشرا دون حواجـز، وحـين جـاءت اللحظـة التـي انتظرتهـا طويـلا حـين تـم الإعـلان عـن حضـوره أمسـية شـعرية في معـرض الكتـاب، ذهبـتُ مبكـرًا، ولم أكـن أنتظـر سـوى سـماع صوتـه وهـو يلقـي شـعره، وسـمعته حتـى انتهـت الأمسـية ولم أحـاول الاقـتراب منـه، واكتفيـت برؤيتـي لـه، وعـدت إلى البيـت حامـلا بقيـة أعمالـه التـي لم أكـن قراءتهـا، ولم أتوقـف حتـى الآن عـن قراءتهـا.

«٣»

لا أظن أن الشِّـعر قد عرف شـاعرًا أَشْعَرَ منه!

حـين تقـرأ كلـمات قصائـده تشـعر أنـه لم يكـن أبـدًا واحـدًا مـن الذيـن يجلسـون عـلى مكاتبهـم ويرتِّبـون دفاترهـم لكتابـة القصائـد، فأنـت تشـعر دون أن تعرفـه بـأن قصائـده وُلـدت في سـاحات المعـارك، وداخـل الزنازيـن، وعـلى المقاهـي في بـلاد المنفـى.

فقـد عـاش طيلـة حياتـه يؤمـن بـأن قـدره أن يكتـب قصائـده فـوق الدبابـات، ولم يـرضَ لنفسـه يومًـا أن يجلـس -في أثنـاء المعـارك-

مـع الخائفـين في الخنـادق، لذلـك ظـل «محمـودا» بـين النـاس، ولـه «دراويـش» مـن المحيـط إلى الخليـج يـرون أن بإمـكان أشـعاره أن تغـيّر مجـرى التاريـخ.

قصائـده سـكنت القلـوب، وتركـت آثارهـا في العقـول، وصـارت كلماتـه عناويـن رئيسـية لمـن أراد أن يـدرك معـاني الوطنيـة، فقـد اختـار أن يكـون الحـبر وقـودًا للحـرب، وأن يكـون صوتًـا للمقاومـة، وسـوطًا مسـلطًا عـلى أعدائهـا، وأن تكـون قصائـده بمثابـة ثـورة ضـد كل قيـد، فمنـذ ميـلاده الشـعري قـرر أن يكتـب القصيـدة المقاومـة التـي تقـف شـامخة في سـاحات المعـارك، وقـد بـدا ذلـك واضحًـا في كل قصائـده، وتحديـدا في قصيدتـه «أيهـا المـارُّون» التـي زلزلـت الأرض مـن تحـت أقـدام سـفاحي تـل أبيـب، وجعلتهـم يشـعرون بـأن القصيـدة يمكـن أن تكـون كلماتهـا أكـثر خطـرًا مـن الرصـاص، وسـنظل نـردد أشـعاره مـع كل هجمـة همجيـة مـن العـدو الصهيـوني عـلى أرضنـا ونقـول:

أيها المارُّون بـين الكلمات العابرة
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شـئتم ولكـن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
وَلْتَمُوتوا أينما شـئتم ولكـن لا تموتوا بيننا
فَلَنَـا في أرضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنـا صوت الحياة الأوَّل
ولنا الحاضرُ، والحاضر، والمسـتقبل
ولنـا الدنيا هنا.. والآخرة
فاخرجوا من أرضنا

للكبار فقط!

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

جلال عامر

جحا القرن العشرين

«١»

«كانـت جنازتي كبيرة ومهولة!

وقـد توقعـت -قبـل وفـاتي- أن تكـون جنـازتي كبـيرة ومهولـة بفضـل عـدد الدائنين الذيـن سيمشـون ورائي أملًا في معجـزة تعيـدني إلى الحيـاة حتـى يسـتأنفوا مطالبتـي بفلوسـهم»!

هكـذا وصف العم جليـل البندراي جنازته.

وأضـاف: «الصحـف اعتـادت أن تصـف الجنـازات وصفًـا واحـدًا حزينًـا لا يتغـير فلـماذا لا أُسـعِد النـاس بوصـف ضاحـك للجنـازة؟ هـذا هـو الجديـد وأنـا أحـب الجديـد.. الجنـازة فيهـا إفيهـات تفطّـس م الضحـك.. فليـه دايمًـا نبـصّ لهـا مـن زاويـة الدمـوع؟ ومـا ذنـب القـارئ حتـى أزعجـه عَ الصبـح بـكلام حزيـن ومقـرف، أنـا الـذي تعـودت أن أسـليه كل صبـاح وأحـاول أن أرسـم ابتسـامة عـلى فمـه، أليـس مـن الأفضـل أن أودع القـارئ بابتسـامة؟!».

ربمـا لا تكـون سـمعت عنـه مـن قبـل، وربمـا أيضًـا سـمعت عنـه لكـن لم تقـرأ لـه، فكتبـه لم تصـل إلينـا، ومقالاتـه التـي كان يكتبهـا يوميًّـا في الصفحـة الثامنـة بجريـدة «الأخبـار» لم يتـم جمعهـا في كتـاب حتـى الآن، فقـد كان أول مـن كتـب «التويتـة»، نسـبة إلى «تويـتر».

فأفـكاره مركَّـزة، وأهدافـه واضحـة، وعباراتـه مكثفـة، وكلماتـه قليلـة، وجُمَلـه قصـيرة لكـن لسـانه كان طويـلا، وطويـلا جـدًّا!

لكنـه رحـل قبـل قرابـة نصـف قـرن بعـد أن مـلأ الدنيـا ضجيجـا، وضحـكا، وأفلامـا، وأوصافـا، وشـتائم، لدرجـة أن «تحيـة كاريـوكا» أطلقـت عليـه لقـب «جليـل الأدب.. وإحنـا بنـدارى عليـه»، وحلفـت ذات مـرة أن تضربـه بالشبشـب، وتعقبتـه في منـزل إحـدى الفنانـات وجلسـت تنتظـر حضـوره ودخـل جليـل فنطـق بشـتيمتين فاسـتغرقت بعدهـما تحيـة في الضحـك!

«٢»

كانـت الشـتائم لازمـة في لسـانه، أو كانـت أشـبه بفاصلـة أو «شَـوْلة» بـين عبـارات كلامـه العـادي، وكان يُغضـب النـاس منـه بالشـتائم ثـم يعتـذر إليهـم بالشـتائم أيضًـا -عـلى حـد تعبـير عمنـا أحمـد رجـب- الـذي شـهد وشـاهد مئـات الوقائـع مـع العـم جليـل، ومنهـا حـين أقسـم فريـد شـوقي أنـه سـيرمي جليـل مـن البلكونـة وسـيُطبق ضلوعـه، وذلـك بعـد أن كتـب جليـل أن هـدى سـلطان تـضرب وحـش الشاشـة بالأطبـاق، الأمـر الـذي يهـز صـورة وحـش الشاشـة عنـد جمهـور الترسـو.

وذهـب أحمـد رجـب مـع جـلال معـوض ليحـاولا تهدئـة فريـد شـوقي ولكنـه أصر عـلى ضرب جليـل عنـد حضـوره!

ولم يكـن أمامهـما إلا أن يسرعـا إلى بـاب العـمارة حتـى ينصرفـا بجليـل عنـد حضـوره بعيـدًا عـن لكـمات وحـش الشاشـة، ولكـن جليـل أصر عـلى الصعـود، ودخـل عـلى فريـد شـوقى الـذي نظـر إليـه والـشرر يتطايـر مـن عينيـه وإذا بجليـل ينطـق بكلمـة واحـدة فطـس بعدهـا وحـش الشاشـة مـن الضحـك!

ورفـع الفنانـون والفنانـات ٨٠ قضيـة ضـده انتهـت جميعًـا

بالصلح بعد أن اعتذر إليهم بشتائمه!

فقد انتهى الفنانون والفنانات إلى حقيقة مؤكدة وهي أن جليل البندارى هو صاحب أطول لسان وأطيب قلب!

ولعل أبرز دليل على طيبة قلبه هو أن الأغنية الأقرب إلى قلبه كانت أغنية «ماما زمانها جاية»، لدرجة أنه طلب من صديقه الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يعلِّمه عزف هذه الأغنية على البيانو، وتعلمها بالفعل، وظل يعزفها كل يوم حتى حجزت الضرائب على كل ما يملكه، وصادرت البيانو!

يومها كان يتحسس البيانو كما يتحسس طفلٌ لعبةً ستُنتزع منه.

«٣»

عمنا جليل البندارى كان كاتبًا وصحفيًّا وناقدًا وسيناريستًا، وله عدد كبير من الأفلام التي ما زلنا نشاهدها حتى الآن، ونضحك معها وعليها منها: «العتبة الخضراء»، و«الآنسة حنفي»، و«بمبة كشر»، و«موعد مع إبليس»، و«شفيقة القبطية»، وهو أول مَن أطلق على عبد الحليم حافظ لقب «العندليب الأسمر»، وهو أيضًا مَن أطلق على أغنية «أنت عمري» التي غنّتها سيدة الغناء أم كلثوم ولحّنها موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب «لقاء السحاب».

فكلماته ما زالت حية بيننا نذكرها، ونتذكرها، ونرددها لكن دون أن نبحث أو نعرف صاحبها. ورغم قسوة التجاهل وعدم الاعتراف بأصحاب الفضل والسبق فإن هذه هي قيمة المبدع الذي تتجاوز أفكاره ورؤيته حدود الزمان والمكان وتظل عالقة

بالأذهان أبد الدهر.

فالمبدع يظلّ حيًّا ما دمنا نردد أفكاره وكلامه، فهذا يكفيه، فهو يدرك أن وجود أفكاره أهم كثيراً من وجود اسمه، لكن وجود اسمه مهمّ لنا ولأجيال لا نريد لها أن تفقد الذاكرة، والذكرى.

لكن المدهش أن جليل البندارى قبل وفاته كان يهوى جلسات تحضير الأرواح، وذات مرة لجأ إلى محضر أرواح اسمه الحاج طلبة، ليقوم بتحضير الست شوق البولاقية التي هام بها نابليون بونابرت غرامًا خلال وجوده في القاهرة أيام الحملة الفرنسية. كان جليل بصدد كتابة أوبريت غنائي يحكي غرام نابليون بفاتنة بولاق، ورأى أن تحضير روحها سوف يمكّنه من كتابة الأوبريت بتفاصيل تاريخية صحيحة.

ولأمر ما تغيَّب الوسيط فاختار الحاج طلبة وسيطا آخر، وراح يجري طقوسه في الغرفة المعتمة، وما لبث أن سرت همهمات غامضة قال بعدها الحاج طلبة: السلام عليكم، وردّت روح شوق البولاقية السلام، وقدمت نفسها قائلة: أنا شوق بنت عديلة وكانوا يدللوني باسم شواشي، بينما كان نابليون يناديني «شير.. شو».

وقالت شوق البولاقية إنها تعرفت على نابليون في بيت مندور الكحكاوي، وأنه أُعجب بها إعجابًا شديدًا. وروت شوق تفاصيل كثيرة عن غرام نابليون بها، لكنها صُدمت صدمة فظيعة عندما اكتشفت أن نابليون كان يريد أن يستولى على مصاغها خصوصًا خلخالها الذهبي!

وكان جليل يكتب كل هذه التفاصيل، حتى اكتشف أن الوسيط الذي قال كل هذا الكلام هو عمنا أحمد رجب!

أحمد رجب كان أقرب الأحياء إلى قلب عمنا جليل البنداري، وهو أيضًا المصدر الأول، وربما الأوحد في كل معلومة عن حياته الخاصة، لذلك تحدثت معه قبل أن أكتب عن العم جليل.

كان الأستاذ أحمد يعتبر جليل البنداري والده، وكان يُقبِّل يده كلما رآه رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»!

ضحكات عفيفي الصارخة!

«١»

«عزيزي القارئ...

يؤسفني أن أُخطرك بشيء قد يحزنك بعض الشيء، وذلك بأنني قد توفيت، وأنا طبعا لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة (دى صعبة شوية) وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تُنشر بعد وفاتي، وذلك لاعتقادي بأن الموت شيء خاص لا يستدعي إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات، والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالي العزاء.

وإذا أحزنَتْك هذه الكلمات، فلا مانع من أن تحزن بعض الشيء، ولكن أرجو أن لا تحزن كثيراً».

هكذا نعى الساخر الأعظم محمد عفيفي نفسه، وأصر أن تُنشر هذه الوصية بعد وفاته في جريدة «الأهرام»، ونُشرت بالفعل في ٥ ديسمبر عام ١٩٨١ بعد شهرين فقط من وصول حسني مبارك لكرسي السلطة خلفًا للرئيس السادات.

لكن قبل ٦١ عامًا، وتحديدًا في فبراير ١٩٢٢ كانت الحياة مختلفة.

وقتذاك عاد اللنبي من بريطانيا وحيّاه الكثيرون في طريقه إلى قصر الدوبارة، وذهب في نفس اليوم إلى الملك فؤاد وسلمه تصريح ٢٨ فبراير، وفيه إلغاء الحماية، وإعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وأعلن الملك فؤاد أنه صار ملكًا بعد أن كان سلطانًا، وتولَّى عبد الخالق ثروت باشا الوزارة وجمع مع رئاسة الوزارة وزارتي الداخلية والخارجية. وتم إغلاق جريدة «الأهالي» وتعطيل جريدة «الأهرام» ثلاثة أيام، و«الأمة» ثلاثة أشهر، والتنبيه على الصحف عدم ذكر اسم سعد زغلول وزملائه في المنفى.

.. وأسس سيد درويش مسرحًا له في الإسكندرية، وكانت مسرحية «شهرزاد» أول مسرحية يتم عرضها عليه.

.. ونجيب محفوظ كان في طريقه إلى المدرسة الابتدائية، وأحمد مظهر أتمَّ عامه الخامس.

.. وقبل عام واحد فقط من ميلاد أول دستور عرفته مصر في تاريخها، وقبل ست سنوات من ميلاد محمود السعدني وأحمد رجب.

وسط هذه الأجواء وُلد محمد عفيفي في يوم السبت ٢٥ من فبراير عام ١٩٢٢ في قرية «الزوامل» بمحافظة الشرقية.

نشأ في أجواء القرية المصرية، وتدرج في صفوف التعليم حتى حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٤٣، ثم حصل على دبلوم الصحافة عام ١٩٤٥.

وبعد خمس سنوات وتحديدا في مطلع عام ١٩٥٠ عثر على شريكة حياته السيدة اعتدال الصافي، وأنجب منها ثلاثة أبناء «عادل ونبيل وعلاء» طبيب ومهندس ومحامٍ، لكنه يقول عن الزواج: «سيظل الناس يتزوجون إلى الأبد ما دام هناك مَن يظن أنه أفضل حظًّا من الآخرين».

وبعد شهور قليلة من زواجه الذي اختار له نفس تاريخ ميلاده، عمل محررًا في «أخبار اليوم»، وكان مسؤولا عن باب بعنوان «هذا وذاك»، وظل كذلك حتى ٣١ مارس ١٩٦٤، وفي

ذات العام انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» وحرّر فيها بابًا بعنوان «ابتسم من فضلك»، ثم غادر «أخبار اليوم» بعد قرار تأميم الصحافة، ورحل إلى «دار الهلال» مع صديقه أحمد بهاء الدين وظل يكتب في مجلة «المصور» لعشر سنوات، وبعدها عاد إلى «الأخبار».

«٢»

محمد عفيفي هو صورة لجيل بأكمله نبغ في كل شيء، ولم يسع لشيء، فهو صحفي، وساخر، وروائي، وكاتب مسرحي، وله ثلاثة عشر كتابًا لن تجد أغلبها في المكتبات رغم أهميتها وقيمتها الأدبية والفكرية وروعة أسلوبها لكن أجمل ما في كتبه أنك حين تقرؤها لا تتصور أن من كتبها رحل منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا فيقول: أحيانا أميل إلى قراءة كتب الخرافات.. بالأمس عكفت على قراءة «ميثاق حقوق الإنسان»!

لم تشغله الحياة بقدر ما شغلها هو بفنه وإبداعه وقدرته على التكثيف والتبسيط والتوصيف والتشخيص لكل ما فيها ومَن فيها، فلم يكتب من أجل أن يحصد المجد أو الشهرة والمال، ولو أراد لحقق كل شيء، لكنه لم تشغله الأضواء ولم ينشغل بها، فهو واحد من هؤلاء المتواضعين العظام الذين لا يشعرون بأن ما يفعلونه يستحقّ الثناء والاحتفاء والتمجيد والتهليل، هو يظن أنه يفعل ما عليه فقط، يكتب ما يعتقده ويجعلك تضحك على طريقته، لذا يوضح الفرق بين المهرج والساخر قائلا: «المهرِّج يجعلك تضحك عليه، والساخر يجعلك تضحك عليكما».

هـذه هـي مدرسـته في السـخرية فهـو بـلا عُقـد، ولا يريـد التصنـع أو ادعـاء العلـم رغـم كونـه عليـمًا، ولم يـدَّعِ بطولـة رغـم أنـه بطـلا حقيقيًـا، كان يفعـل كل شيء ببسـاطة وتلقائيـة وخفـة ظـل، لكنهـا بسـاطة عميقـة، وتلقائيـة منتقـاة، فـلا يخاطـب القـارئ مـن أعـلى بـرج عاجـي، لكنـه يخاطبـه مـن الكـرسي المجـاور لـه عـلى المقهـى فيقـول لـه: الفـرق بـين اللـص الصغـير واللـص الكبـير، أن الأول يتسـلق الماسـورة، أمـا الثـاني فيتسـلق الموجـة!

ظـل محمـد عفيفـي بعيـدًا عـن السياسـة وتقلباتهـا، وظلـت كتاباتـه مرتبطـة بنبـض البسـطاء، الذيـن كان يكتـب مـن أجلهـم، ويرصـد معاناتهـم، ويعـبر عنهـم في كلـمات قليلـة لكنهـا كافيـة، لكنـه لم ينافـق القـارئ بـل كان عينـه وقلمـه، لذلـك حـين تفشـت ظاهـرة «الإفتـاء السـياسي» قـال: «بعـض المصريـين يفهمـون في الطـب، وبعضهـم يفهـم في الهندسـة، وبعضهـم في الأدب والفلسـفة، وبعضهـم لا يفهـم في أي شيء، ولكنهـم جميعًـا يفهمـون في السياسـة»!

لم يغـيّر سـيارته الفـورد النبيتـي موديـل ١٩٥١ الكالحـة لمـدة ثلاثـين عامًـا، كان يـترك بابهـا مفتوحًـا لعـل أحـد لصـوص السـيارات يـرقّ لحالهـا فيضـع فيهـا صدقـة جاريـة -عـلى حـد تعبـير الرائعـة سـناء البيـسي التـي ظلـت بصحبتـه داخـل حجـرة واحـدة لعـشر سـنوات كاملـة في مبنـى «أخبـار اليـوم»- ربمـا لذلـك كان يسـأل صاحـب السـيارة الفارهـة: «يـا أيهـا الذاهـب إلى صـلاة الجمعـة بالسـيارة المرسـيدس أتريـد الآخـرة أيضـا؟!».

ووضـع محمـد عفيفـي تعريفـا للمواطـن المـصري قـال فيـه: «إنـه المواطـن الوحيـد في العـالم الـذي يمكنـه أن يمـوت في حـادث تصـادم بـين مرسـيدس وكارو»!

ويضيـف: «نعـم، تسـتطيع السـيارة الخَرِبـة أن تسـتمر في السـير..

إذا وضعتها أعلى طريق منحدر»!

أعتقد أن هذه العبارة تحمل التفسير الوحيد لما نحن فيه الآن.

«٣»

عفيفي عاش زاهدًا، وعازفًا عن الحياة الصاخبة رغم أنه واحد من مؤسسي شلة الحرافيش، ومن أقرب أصدقاء نجيب محفوظ، وقد كتب عن محفوظ مقالا شهيرًا بعنوان «رجل الساعة» وتحدث فيه عن عبقرية الرجل الذي يفعل كل شيء بدقة حتى إنك يمكن أن تضبط ساعتك على مواعيده، فسيجارته على رأس كل ساعة، وجلوسه على المقهى بحساب، وسهرته مع الحرافيش بميعاد، وهكذا كل شيء في حياة نجيب محفوظ.

وحين اقترب الأجل، واشتدّ المرض، ودنا ملك الموت من عفيفي لم يأتمن أحدًا على روايته الأخيرة إلا نجيب محفوظ، فترك له مسودة العمل بلا عنوان، فاختار لها أديب «نوبل» اسم «ترانيم في ظل تمارا»، ونُشرت بعد رحيله.

أعمال عفيفي تنوعت، إذ بدأها بمجموعة قصصية سماها «أنوار»، ثم تبعها بمسرحية «التفاحة والجمجمة»، وبعدها كتب روايته الأولى «بنت اسمها مرمر»، ثم اتجه إلى أدب الرحلات بـ«تائه في لندن» و«فانتازيا فرعونية» و«سكة سفر»، وبينها أرَّخَ لجلسات الحرافيش بروايته «شلة الحرافيش»، لكن يبقى أشهر أعماله هي كتبه الساخرة ومنها: «ابتسم من فضلك»، و«ابتسم للدنيا»، و«ضحكات عابسة»، و«ضحكات صارخة»، و«للكبار فقط».

والحقيقة أنه بالفعل للكبار فقط، فرغم سلاسة أسلوبه وروعة لغته وبساطة كلماته ودقة تعبيراته فإنه اختار أن يكون واحدًا من هؤلاء الكتاب الذين يجب أن تبذل جهدا من أجل أن تصل إلى أعمالهم، فلا يمكن أن تجد كتبه ملقاة على الأرض أمامك على قارعة الطريق، ومن الصعب أن تعثر عليها في المكتبات، وربما الحل الوحيد لهذه المعضلة أن تتم طباعة أعماله الكاملة، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب تنفيذ ما طالب به مرارًا أستاذنا أحمد رجب وهو إطلاق اسم محمد عفيفي على أحد ميادين مصر، فلا يجوز أن لا تعرف الأجيال القادمة والحالية قيمة كبيرة وقامة عالية مثل محمد عفيفي الذي لقَّبه عمنا محمود السعدني بالساخر الأعظم.

عفيفي حالة متفردة يجب أن تبحث عنها وتسعى لها لتقطف ثمرتها، لتشعر بنشوة القراءة له، وتدرك مقصده حين يقول: في حديقة الحيوان أشعر بأمان أكبر بكثير من ذلك الذي أشعر به في الشارع، فحيوانات الحديقة كما تعلم محبوسة!

الطريـق إلى بيت أحمد رجب!

«١»

حـين تطـأ قدمـاك منـزل عمنـا أحمـد رجـب تـدرك تمامًـا أن مَـن يسـكنها هـو إمـام الزاهديـن، وسـيد المتواضعـين، فالشـقة اشـتراها حـين تـزوج في مطلـع السـتينيات مـن القـرن المـاضي، وليـس بهـا أي مظاهـر للـترف أو الـثراء رغـم كونهـا تقـع في واحـدة مـن أرقـى مناطـق الجيـزة، في حـى المهندسـين، فالتكييـف يبـدو أنـه اشـتراه منـذ زمـن بعيـد، والأثـاث رغـم أناقتـه فإنـه لا يوجـد بـه أي مبالغـة، والجـدران يكسـوها ورق الحائـط، ولا توجـد عليهـا سـوى صورتـين إحداهـما لابـن أختـه، والثانيـة لصديـق عمـره.

يجلـس عـلى مقعـده وبجـواره عـدد كبـير مـن الكتـب والصحـف وفي يـده «أخبـار اليـوم»، وأمامـه شاشـة تليفزيـون يشـاهد عليهـا برامـج التـوك شـو المسـائية وقنـوات الأخبـار العالميـة.

ذهبـتُ إلى الأسـتاذ أحمـد رجـب -بنـاءً عـلى موعدنـا- في تمـام الثانيـة عـشرة ظهـرًا، وبمجـرد أن وصلـت أمـام بيتـه وجـدتُ مـن ينتظـرني ليصعـد بي إلى شـقته في الـدور الأول.

طَرْقَـة واحـدة عـلى البـاب كانـت كافيـة ليفتـح عاطـف -ذلـك الرجـل الـذي لم يفـارق الأسـتاذ منـذ قرابـة ٤٠ عامـا- فدخلـتُ، وعـبرتُ بـاب الشـقة، ووجـدت الأسـتاذ جالسًـا عـلى مقعـده، وجـواره عصـاه التـي يتـوكأ عليهـا، ممسـكًا بـ«أخبـار اليـوم»، وحـين رآني عَلَـت الابتسـامة وجهـه، خصوصـا أننـي كنـت أرتـدي «تي شـيرت» مطبوعًـا عليـه صورتـه، وأحمـل في يـدي جائـزة الصحافـة العربيـة، المنحـوت

عليها اسمه والتي شرّفني باختياري لتسلمها نيابةً عنه، وسلمت له الجائزة وشهادة التقدير والحقيبة، فكافأني مكافأة لم تخطر لي على بال، إذ جعلني أتجول في بيته وأرى مكتبه ومكتبته.

رأيت بيته غرفة غرفة، ورأيت المكتب الذي يكتب عليه «نُص كلمة» منذ أكثر من نصف قرن، وشاهدت مكتبته المكتظة بأمهات الكتب من الأرض إلى السقف، وإلى جوارها عدد هائل من شرائط الكاسيت التي ما زال يحتفظ بها لجبابرة الغناء: أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وشادية وغيرهم، وكذلك شاهدت شرائط الفيديو المسجّل عليها الأفلام التي كتب قصتها والسيناريو والحوار لها.

«٢»

وحين انتهت جولتي في الشقة، جلسنا ساعتين نتحدث في كل شيء، لكن أغلب حديثنا دار حول أولياء الكتابة الصالحين الذين عاصرهم وعاش معهم وبينهم أمثال جليل البنداري الذي تمنى أن يكتب كتابًا عنه، وكامل الشناوي وجلساته الساخرة، وعلي أمين وجلساته الساحرة، ومصطفى أمين الذي كان يزور أحمد رجب في بيته، ويجلس على الكرسي المواجه لباب الشقة، وأثنى كثيرًا على الأستاذ إبراهيم عيسى وأبدى إعجابه الشديد بذكائه، وخفة ظله، وثقافته، ومقالاته، وبرامجه.

وتحدثنا عن الرئيس المعزول محمد مرسي، وفاجأني الأستاذ بأنه كان يتمنى أن يكتب رواية كوميكس مستوحاة من شخصية مرسي، فهو يرى أن هذا الرجل مادة ثرية وملهِمة للساخرين.

وقال لي إنه يرى أن المأساة والملهاة وجهان لعملة واحدة،

لذلك منذ سنوات طويلة أعاد كتابة السيناريو والحوار لواحدة من أشهر المسرحيات التراجيدية، وهي مسرحية «عطيل» لشكسبير، ولكنه صاغها بصورة كوميدية، واتفق مع صديقه المخرج فطين عبد الوهاب على إخراجها، لكنه رحل قبل أن يخرج العمل إلى النور، ولم تكن معه نسخة أخرى من السيناريو الذي كتبه، ولم يستطع الورثة العثور على هذا السيناريو!

أحمد رجب يرى دائمًا الوجه الساخر من الأشياء، ويمكنه بكلمة أو بحرف واحد فقط أن يجعل من المأساة ملهاة، فلا يمكن أن تتمالك نفسك من الضحك وأنت تجلس معه، يظهر ذلك في أعماله، ويظهر أكثر في كتابه الجديد البديع «يخرب بيت الحب» الذي صدر حديثًا، والذي كان يكتب صفحة واحدة منه كل يوم، حتى يتمكن من إنجازه، وأهداني الكتاب قائلا: «إلى ابني العزيز صحفي المستقبل المرموق الذي وكّلته استلام جائزتي من مسابقة الصحافة العربية، والشهادة للحق أنه أحضر لي كل شيء كاملا دون أن يحدث منه أي اختلاس فشكرًا لأمانته وأتمنى أن أراه صحفيًا مرموقًا أفخر به لأنه ابني».

«٣»

كلام والدي أحمد رجب شرف لا أدّعيه، لكن أكثر لحظة شعرت فيها بأنني ابنه فعلا حين دق جرس التليفون فى تمام العاشرة مساءً من يوم ١٤ مارس ٢٠١٤، ورغم أننا نتحدث كثيرًا، وطويلا، فإنه لم يتصل بي أبدًا في هذا التوقيت، فعادة الأستاذ أن يتصل بي في الصباح، وغالبًا ما أكون نائمًا، وأعاود الاتصال به عندما أستيقظ، ودائمًا ما يسخر مني بسبب نومي حتى

الظهيرة، ويقول لي: «أنت صاحي بدري كده ليه؟!».

فكان غريبًا اتصاله في العاشرة مساءً، لكن بمجرد أن رددت جاءني صوته فرحًا، ومبتهجًا، ومنتشيًا، وقال لي: «أنا فزت بجائزة الصحافة العربية، كأفضل عمود صحفي.. وهمًا أبلغوني منذ دقائق بالجائزة، لكن أنا طبعًا مش هاقدر أسافر، عشان كده قررت أنك تسافر مكاني، وتتسلم الجائزة نيابة عني.. من النهارده أنت أحمد رجب».

في هذه اللحظة كدتُ أُصاب بالجنون من الفرحة، لم أصدق، ولم يستطع عقلي تحمل ما قاله الأستاذ، لدرجة أنني لا أذكر ماذا قلنا بعد ذلك، وكيف انتهت المكالمة بيننا، وتذكرت في هذه اللحظة نجيب محفوظ حين قرر أن لا يذهب لتسلم جائزة نوبل وأرسل ابنته لتتسلمها بدلا منه، لا أعرف لماذا هذه الواقعة تحديدًا التي هبطت على ذاكرتي، وعلى ذاكرة زوجتي في نفس الوقت!

ربما لأنني شعرتُ بما يقوله لي دائمًا إنني ابنه الروحي، وهذا شرف أحاول أن لا أصدقه من فرط سعادتي به، وأخشى أن يصيبني الغرور بسببه، لكن بعد أن أُغلق الخط، وفي ظل فرحتي الغامرة، تذكرتُ قائمة طويلة من التلاميذ والمريدين والمقربين منه، وعلى رأسهم الرائعة صفية مصطفى أمين، التي يكفي اسمها ليجعلها أقرب الأحياء إلى قلب أحمد رجب، لذلك اكتملت فرحتي حين هنأتني على اختياره لي، لكنني ظللت لا أصدق!

فعاودت الاتصال بالأستاذ، وقلتُ لنفسي، ربما يعيد التفكير مرة أخرى، ويختار شخصًا آخر يمثله، ويتسلم الجائزة نيابةً عنه، خصوصا أن البعض عندما علم باختياره لي، لم يَرُقْ لهم

الاختيار، وتمنوا أن يكونوا مكاني، وصارحته بما في قلبي فجاءت إجابته قاطعة وواضحة وحاسمة: «أنا قلت أنت اللي هتسافر يعني أنت اللي هتسافر.. أنا حابب أنك تشاركني هذه الفرحة».. فعجز لساني عن النطق، والشكر.

«٤»

لكن شاء القدر أن يرحل أحمد رجب قبل أن يعرف أن رفيق رحلته قد رحل إلى الدار الآخرة!

لم يستطع أحد أن يبلغه أن صديقه قد سبقه، لأنه حين انتقل مصطفى حسين إلى دار البقاء كان أحمد رجب يرقد في غرفة العناية المركزة التي ظل بها قرابة الستين يومًا، وكان الجميع ينتظر أن يسترد صحته وعافيته ويعود إلى بيته ليبلغه نبأ رحيل رفيق الأربعين عامًا الماضية منذ التقيا عام ١٩٧٤.

رحل أحمد رجب الأستاذ الذي تشرفتُ بصداقته، والإنسان الذي تعلمتُ من تواضعه ووفائه وإخلاصه وصدقه وعدم سعيه لمال أو شهرة أو سلطة، كان مكتفيا بأن يقول ما يعتقد دون أن ينتظر المقابل، فلم يشغله الثناء أو السباب، كان يقول لي دائما: «أنا أدفع ضريبة ما أؤمن به، وقد أكون على صواب وقد أكون مخطئًا لكن مَن يهاجمني لم يفكر ماذا يفعل لو ثبت أني على حق.. ولا أريد من أحد أن يتصدر للدفاع عني، فلست عاجزًا عن الرد»!

لكن المدهش أن الأستاذ أحمد رجب قد نعى نفسه بنفسه قبل وفاته قائلا:

«أوصيت الأقربين بأن لا يُنشر نعي عند وفاتي، فبيني وبين

صفحات الوفيات خصومة شديدة، فهي في رأيي حقل خصب للنفاق الإداري والاجتماعي والنصب أيضا!

كأن يكتب نصاب لا يعرف المتوفَّى بضعة سطور حزينة ينعي فيها صديقه ورفيق عمره فلان، ثم يتوجه إليه معزيًا وهو ينزف الدمع الهتون، وينجلي الأمر بقوله إن المتوفَّى مديون بألف جنيه دين شرف في لعب البوكر، وإن الله يرحمه كان شريفًا جدًّا في لعب الورق وعمره ما غشّ!

ولقد كانت أول صحيفة مصرية أدخلت هذه البدعة هي جريدة (الوقائع المصرية)، إذ نُشر بها أول نعي عن وفاة إحدى بنات محمد علي باشا تحت عنوان (ارتحال بنت أفندينا وليّ النعم من دار الفناء إلى دار البقاء)، وقال كاتب النعى (إن القلم في يدي يزفر ويبكي حزنًا على حضرة المعصومة والدرة المعدومة فرع الأصل الأصفى)، ويلاحَظ أن وفيات جريدة (الوقائع) اقتصرت على أفراد الأسرة الحاكمة، وكان النعي مقصورًا على نشر الخبر دون أن يُنشر بجوار الخبر ذلك البكاء المصطنع من المنافقين والنصابين.

وإذا كانت صفحة الوفيات لم تظهر في صحافة الغرب، فإن الغربيين يناجون المتوفَّى في لوحات توضع على القبور بدلا من سطور الصحيفة، وتضم هذه اللوحات أحيانًا ما يثير الضحك في موقف بعيد تمامًا عن الضحك، فهذه مثلا لوحة في بروك فيلد بولاية كونكتيكت أوصى الزوج بكتابتها قبل مماته (هنا يرقد جون فليبروك وزوجته ظهرًا لظهر، وحين يُنفخ في الصور يوم القيامة ستنهض هي ولكني لن أنهض حتى لا أراها).

وفي سيلبى بمقاطعة يوركشاير بإنجلترا (هنا ترقد زوجتي، وأكون كاذبًا لو قلت إني حزين ،عليها فقد كانت عديمة التربية

سـليطة اللسـان).

وفي مدينـة لينكولـن كتبـت زوجـة (هنـا يرقـد جـيرد بيتـس الـذي تعيـش أرملتـه في شـارع إيلـم رقـم ٦ وهـي في الرابعـة والعشريـن مـن عمرهـا ولديهـا كل مقومـات الزوجـة العظيمـة المريحـة).
ولوحـة أخـرى (هنـا ترقـد سـينثيا سـتيفنز زوجتـي، عاشـت سـت سـنوات في الهمـوم والمنازعـات وأخـيراً اسـتراحت وكذلـك أنـا).

ويبـدو أن أرملـة السـيد جيمـي ويـت كانـت في شـدة البخـل، إذ كتبـت عـلى قـبره في فولكـيرك بإنجلـترا (مـات ذات صبـاح في السـاعة التاسـعة فوفَّـر بذلـك وجبـة الغـداء ووجبـة العشـاء يـوم وفاتـه).

وفي ميـدواي لوحـة تقـول (هنـا يرقـد العـم دانيلـز، للأسـف خلـع فانلتـه الشـتوية مبكـرًا قبـل حلـول الصيـف).

وفي بدفـورد بإنجلـترا (هنـا يرقـد مسـتر دادلي وزوجتـه التـي كانـت متفوقـة عليـه دائمًـا، ولكـن انظـر كيـف هزمهـا المـوت).

ولأن الأمريكيـين مـن هـواة التقاليـع فـإن الحانوتيـة يعرضـون عـلى أهـل المتـوفَّ أبياتًـا شـعرية ممكـن وضعهـا عـلى اللوحـة حسـب الأحـوال مثـل (هنـا يرقـد فـلان كان قويًـا وعظيـمًا لكـن فرامـل السـيارة لم تكـن كذلـك).

ومـن أغـرب اللوحـات لوحـة تقـول (صـدِّق أولا تصـدِّق.. هنـا يرقـد رجـل شريـف)!

أمـا في صحفنـا فقـد نـشرت زوجتـه هـذه المناجـاة في صـورة هـذا التهديـد (يـا حبيبـى ارقـد في سـلام وهـدوء.. حتـى التقـي بـك)»!

عمك محمود

«١»

«زمان كان مدرّس الحساب يعتقد أنني حمار وكنت أعتقد أنني عبقري، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن المدرس كان على خطأ، واكتشفت أيضًا أني لم أكن على صواب، فلا أنا عبقري ولا أنا حمار، بصراحة أنا مزيج من الاثنين، العبقري والحمار.. أنا حمقري!

ولأني حمقري، فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلّاس، ولأنني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا (أنا أضحك إذن أنا سعيد) وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تفرقع على لسانه تفرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ابتسامة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه».

هكذا وصف السعدني نفسه، فهو كاتب يختمر الحزن في قلبه، ليُخرجه لنا ضحكًا، وأدبًا، وفنًّا، وسخريةً، فهو ليس كاتبًا فحسب بل هو أُمة من الكُتاب والمثقفين والمفكرين والمبدعين والساخرين؛ لذا لم أحزن أنني لم ألتقِ كاتبًا مثل حزني أنني لم أجلس بصحبة العم محمود السعدني رغم أنه متاح أن تقابله في نادي نقابة الصحفيين حيث يقابل أي أحد يطرق بابه، لكنني عرفت الطريق متأخرًا بعد أن تمكّن منه المرض وصار لا يغادر

بيتـه، وحـين كرَّمتـه نقابـة الصحفيـين، ذهبـتُ فرِحًـا بـأني سـأراه في احتفاليـة النقابـة لكنـه لم يـأتِ، ويومهـا وقـف أخـوه الفنـان صـلاح السـعدني قائـلا: «طبعـا أنتـم الآن كمـن ينتظـر محمـد عبـد الوهـاب فجـاء إليـه شـعبان عبـد الرحيـم»!

«٢»

لكـن قبـل قرابـة نصـف قـرن مـن هـذه الواقعـة وتحديـدًا في عـام ١٩٤٦ بـدأ محمـود السـعدني حياتـه الصحفيـة في جريـدة كان مقرهـا إسـطبلا لحمـير أحـد المماليـك البحريـة!

لكـن حياتـه تغـيرت حـين ذهـب إلى مأمـون الشـناوي في مجلـة «كلمـة ونـص» واسـتقبله مأمـون بـلا مبـالاة ولم يرحّـب بـه، وقـال لـه: «عـاوز تكتـب؟»، ولمـا أجـاب بالإيجـاب، تسـاءل في تهكّـم: وبتعـرف تكتـب؟ فأجابـه: نعـم، فأشـار إلى مكتـب أمامـه وقـال: «اقعـد كـده ورّينـي».. ورغـم ارتباكـه الشـديد وخوفـه مـن الفشـل في أول امتحـان حقيقـي يواجهـه فقـد كتـب عـدة أوراق بسرعـة، وعندمـا ألقـى الشـناوي عليهـا نظـرة قـال وهـو يتفحصـه: أنـت اسـمك إيـه؟ فهتـف عـلى الفـور: محمـود السـعدني، فسـأله وهـو يشـعل سـيجارة: أنـت عـارف السـعدني يعنـي إيـه؟ ولمـا أجابـه بالنفـي، قـال: السـعدان يعنـي القـرد، والسـعدني يعنـي القـرادتي!

وفكـر السـعدني أن يلعـن جـدوده وينـصرف، لكنـه تسـمَّر في مكانـه كالتمثـال لا يتكلـم ولا يتحـرك حتـى قـال لـه مأمـون: «ابقـى فـوت علينـا تـاني!».

وفي العـدد التـالي مـن المجلـة وجـد السـعدني مـا كتبـه منشـورًا، فعـاد للشـناوي، وأصبـح محـررا براتـب سـتة جنيهـات، وصـارت

بينهـما صداقـة طويلـة وممتـدة.

وفي عـام ٤٨ قـرر الولـد الشـقي التطـوع في الجيـش والذهـاب إلى حـرب فلسـطين بصحبـة صديقـه الفنـان طوغـان، لكـن بعـد الكشـف عليهـما تـم رفـض السـعدني، لأنـه كان دقيـق الحجـم، فقـال طوغـان للقائـد: «أنـا ماينفعـش أروح أحـرر فلسـطين لوحـدي مـن غـير السـعدني»!

وعـادا معًـا، واسـتمرت صداقـة العمـر، وحـين سـمعا بيـان ثـورة يوليـو طـارا فرحًـا، وخلـع السـعدني حـذاءه ليُقبّلـه، وأصبـح مندوبًـا لمجلتـه في القيـادة العامـة، لأن المسـؤولين عنهـا لم تكـن لديهـم قناعـة بالثـورة، لـذا قـررت المجلـة أن تُرسـل أقـل المحرريـن شـأنًا!

وحـين وقـع العـدوان الثـلاثي كان الولـد الشـقي في سـوريا، ولكـن انقطعـت الصلـة بـين مـصر وسـوريا، فأسـس مجلـة هنـاك لمنـاصرة مـصر، وفي هـذا الوقـت نشـأت بينـه وبـين السياسـيين في سـوريا علاقـة قويـة ومنهـم خالـد بقـداش، وكان زعيـم الحـزب الشـيوعي، فأعطـى خالـد خطابًـا للسـعدني ليسـلمه لعبـد النـاصر، لكـن صديقـه طوغـان نصحـه بتمزيقـه، ولكـن الولـد الشـقي أصر وذهـب إلى الرئاسـة وسـلّم الخطـاب، فتـم اعتقالـه، ويومهـا سـألوه عـن التنظيـم الـذي ينتمـي إليـه فقـال لهـم: «زمـش» فتعجـب الضبـاط لأنـه لا يوجـد تنظيـم بهـذا الاسـم فقـال لهـم: «لأني لا شـيوعي، ولا إخـوان، ولا أي حاجـة».

«٣»

ورحـل عبـد النـاصر، وجـاء السـادات، وتجـددت الاتهامـات للسـعدني، وتـم اسـتجوابه مـن النائـب العـام عـلى أنـه شـارك في مؤامـرة لقلـب نظـام الحكـم، لكـن بعـد التحقيـق الـذي اسـتمر يومـين تـم الإفـراج عنـه، لكـن في ذات التوقيـت صـدر قـرار مـن الرئيـس السـادات بفصلـه مـن «روزاليوسـف»، ومنـع نـشر اسـمه في الصحـف بسـبب عـدة نكـت رواهـا لأحـد أصدقائـه عـن الرئيـس!

وتـم تعيينـه في «المقاولـون العـرب»، لكنـه رفـض قائـلا: «لقـد كنـت صحفيًّـا، وسـأبقى صحفيًّـا، وسـأموت صحفيًّـا، وسـأُبعث يـوم القيامـة في كشـف نقابـة الصحفيـين»، وسـافر وعـاش سـنوات مـن النفـي الاختيـاري انتقـل خلالهـا مـن بلـد إلى بلـد «بـلاد تشـيل وبـلاد تحـط» حتـى عـاد إلى مـصر بعـد رحيـل الرئيـس السـادات.

السـعدني تخصـص في نقـد السـلطة، والسـخرية مـن أفعالهـا، والضحـك عـلى منافقيهـا وأفاقيهـا، فصـارت كتبـه مُتحفًـا أنيقًـا يضـمّ قطعًـا أدبيـة تُـشرِّح الحُكـم، ومـن فيـه. ولعـل أكـثر الكتـب التـي شرحـت مـا يجـرى في مـصر كان كتابـه «عـودة الحـمار» وتحديـدًا تلـك القطعـة التـي يقـول فيهـا: «ليـس للمواطـن في بـلاد الحمـير إلا أن يمـشي وراء الرئيـس، فهنـاك متناقضـات كثـيرة في العـصر الحمـيري، منهـا أن لدينـا ديموقراطيـة واسـعة وبـلا حـدود في كل شيء إلا في السياسـة!

في المـرور تسـتطيع أن تمـشي عـلى اليسـار أو عـلى اليمـين، لا شيء يهـمّ، وفي الدنيـا كلهـا ممنـوع اسـتعمال الكلاكسـات منعًـا باتًّـا؛ للتلـوث السـمعي، وفي بـلاد الحمـير توجـد أعظـم فرقـة موسـيقية في

العالم وهي السيارات التي تجرى على الطريق.

العكس تمامًا يحدث في السياسة؛ ليس أمام المواطن إلا التطرف، من حقك أن تطيل ذقنك حتى تصل إلى رُكَبك، ومن حقك أن تربّي شعر حواجبك ورموش عينيك وتصبح درويشًا ومن حقك أن تكون متطرفًا حكوميًا وتموت حبًا في الحكومة، أما إذا أردت الوقوف في الوسط فنهار أبوك أزرق، لن تحصل على بلح الشام أو عنب اليمن».

«٤»

أشعر أن لقب «عمنا» خُلق من أجل محمود السعدني، وأشعر أنه الأحق دائمًا بهذا اللقب رغم كثرة الأعمام، فهو عمك قولا وفعلا، رضيتَ أم لم ترضَ، أحببتَه أم اختلفتَ معه.

فمصر في نظر المحترفين سلسلة طويلة من الأمراء والملوك والسلاطين، ولكنها في نظر عمنا محمود السعدني مجموعة متصلة من الأجيال و«الصيّع» وأصحاب الحاجات والمتشردين!

مصر في زمن السلاطين لم تكن قلاوون أو قطز أو عز الدين أيبك أو علي بك الكبير، ولكنها كانت الحرافيش والحشاشين. ومصر أيام عبد الناصر لم تكن الرئيس ونوابه، ومدير المخابرات وأجهزة الاتحاد الاشتراكى، ولكنها كانت العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والجنود والمثقفين. ومصر أيام السادات لم تكن الرئيس وزعماء المنابر أو تجار الشنطة وأصحاب بوتيكات شارع الشواربي وأصحاب الكباريهات ورواد الحانات، لكنها كانت ملايين الشحاتين والمتسولين والذين يعانون المرض وخيبة الأمل والجوع.

هـذا هـو الفـارق بـين أن تقـرأ تاريـخ مـصر لكاتـب بقيمـة وقامـة وثقافـة وعلـم ورؤيـة وموسـوعية وألمعيـة وخفـة ظـل وصـدق وإخـلاص الولـد الشـقي محمـود السـعدني، وأن تقـرأه مـن محـترفي كتابـة التاريـخ، فالسـعدني ينظـر نظـرة رجـل مـن الشـارع غـير متخصـص وغـير كمسـاري -عـلى حـد تعبـيره- وعـلى غـير علاقـة رسـمية بالتاريـخ!

هـذه هـي الميـزة الأعظـم في كتـب السـعدني بوجـه عـام، وبصفـة خاصـة في كتابـه «مـصر مـن تـاني» الـذي يجـب أن يلتفـت إليـه القائمـون عـلى التعليـم ليتـم تدريسـه، إلا إذا كانـت هنـاك سياسـة تفـرض أن يكـون كتـاب التاريـخ ثقيـل الظـل، قليـل المعرفـة، يحتـوي عـلى القشـور، ولا يحـوي إلا تاريـخ الرؤسـاء والملـوك، وأن يكـون تاريـخ الحـكام هـو تاريـخ الدولـة، وأن الشـعوب يجـب أن لا تظهـر في كتـاب التاريـخ!

السـعدني يكتـب مـا ينطقـه، ويُطـوِّع اللغـة لخدمـة أفـكاره، وفي حضرتـه ينـسى الجميـع تمامًـا أنهـم قـادرون عـلى الـكلام، فـأي متكلـم فيهـم لا بـد أن يصيبـه الإحبـاط في الحـال، إذ هـو لا يملـك شـيئًا ولـو يسـيرا مـن خفـة الظـل هـذه، ولا كل هـذا الـثراء مـن الحكايـات والمواقـف والتجـارب، ولا هـذه القـدرة عـلى ربـط كل هـذه البـوارق بعضهـا ببعـض في لغـة سـحرية مبهـرة؛ لهـذا يفضـل الجميـع الصمـت والإنصـات.

رجلٌ حدثَ بالفعل!

«١»

المعجـزة: أمر خارق للعادة.

وهـذا بالضبط مـا فعله العم جلال عامر!

الرجـل الـذي بـدأ حياتـه بعـد الخمسـين، وفي خمـس سـنوات صنـع مجـدًا يعيـش دهـرًا، وابتكـر أسـلوبًا جديـدًا في الكتابـة الساخرة، فبـدا كأنـه حـاوٍ، يُظهـر كلـمات ويخفـي أخـرى، يجعـل عينـك تقـع عـلى الجملـة التـي يريـد أن تقرأهـا، كلمـة تخاطبـك وأخـرى تخاطـب مَـن يجلـس بجـوارك، وثالثـة تخاطـب زوجتـك، ورابعـة تخاطـب مـن يجلـس فـوق كـرسيّ السـلطة!

هكـذا كان يكتـب، فـكل كلمـة طلقـة تعـرف هدفهـا، ولا تخطئـه أبـدًا، وتذهـب في الاتجـاه الـذي حـدده لهـا بالضبـط، ربمـا لأنـه تـربَّى عـلى حمـل السـلاح، والتصويـب الدقيـق لمـدة جـاوزت العشريـن عامًـا، فصـارت لديـه القـدرة عـلى أن يصـوِّب وهـو مغمَـض العينـين، وتلمـح ذلـك في قولـه: «كنـا نـزرع سـيناء بالمقاومـة والآن نزرعهـا بالحشـيش»!

عبقريـة العـم جـلال أنـك لا تسـتطيع التنبـؤ بمـا سـيصل إليـه في نهايـة المقـال؛ فهـي مجـرد «تخاريـف» إن أردت أن تحاسـبه عليهـا، وهـذه ميـزة مَـن دَرَسَ القانـون، وعـرف خبايـاه واسـتخدمها فقـط لحمايـة نفسـه وفنـه وأدبـه، وليـس لتكديـر حيـاة الآخريـن، لذلـك عندمـا تسـيطر الكآبـة والمكتئبـون تـزداد الحاجـة إلى العـم جـلال،

وعندما تزداد مساحة الضباب ترجع إلى ما قاله حين سأل أحد ركاب الأوتوبيس الجالس بجواره: «إحنا رايحين على فتنة طائفية أم على ثورة جياع؟» فرد الرجل: «ما أعرفش والله، اسأل الكمسري».

«٢»

هذا رجلٌ حَدَثَ بالفعل!

فلا أظن أن الأجيال القادمة يمكن أن تُصدق حقيقة هذا الرجل الذي صنع شهرته ونجوميته وتألقه وتفرده في خمس سنوات فقط.

فقد ظل يعمل ظابطًا فى الجيش حتى سن التقاعد، ودرس خلال هذه السنوات «القانون» في كلية الحقوق و«الفلسفة» في كلية الآداب، ثم اتجه إلى الكتابة في مجالي القصة القصيرة والشِّعر في جريدة «القاهرة»، وبعدها عمل في صحفيتَي «التجمع» و«الأهالي» لكن ظهرت قدراته الحقيقية في عام ٢٠٠٧ عندما بدأ الكتابة اليومية في جريدة «البديل»، فانتقل إلى «الدستور» وتألق بصفحة أسبوعية ثم لمع في «المصري اليوم» وتصدَّر المشهد حتى رحل في ٢٠١٢.

المدهش أن طريقه وطريقته لم يتغيرا، فالكتابة في صحف يقرؤها خمسون قارئًا ولا تعطي له راتبًا -إلا قليلا- لا تختلف عن الكتابة في صحيفة يقرؤها مئات الآلاف من القراء.

فالإبداع عند عمنا جلال عامر لا يتوقف على ارتفاع سعر الدولار أو على عدد القراء، فقد كان يبدع لأنه يُمتع نفسه أولا قبل أن يستمتع قارئه بما يكتبه، ربما لذلك يقول: «مَن

يتابع الصحف هذه الأيام، فسوف يتأكد أننا انتقلنا من مرحلة القراءة للجميع إلى مرحلة الكتابة للجميع».

لكن أظن أن أهم ما فعله جلال عامر هو أنه أعطى أملا لأجيال لم تأتِ بعد، أن الحياة يمكن أن تعطيك ما تستحقه يومًا حتى لو كنت قد قاربت على الستين من عمرك، فقد امتلك موهبة يمكن أن تحجب الشمس عن أجيال سابقة ولاحقة، لكنه لم يتعجل الفرصة، وحين أتت انفجر بركان مواهبه، ولم يعد ممكنا أن يقف أمامه أحد، وخرجت طاقاته الإبداعية دفعة واحدة.

هذا رجل إن لم يكن من أولياء الكتابة الصالحين ربما صار من الأولياء أصحاب الكرامات والمقامات والدراويش، فلا أظن أنه كان يبحث عن كلام يكتبه، فالكلام هو الذي يبحث عنه، وأعتقد أنه كان لا يلهث خلف الأفكار، فالأفكار كانت تذهب إليه طائعة، خاضعة، راضية، وسعيدة.

هذا رجل عاش صابرًا ومثابرًا وصبورًا لم يتعجل الشهرة، ولم يلهث خلف الأضواء، ولم يحاور أو يناور أو يراوغ أو يتاجر أو يبالي بما سيحدث له بسبب ما يكتبه، لكنه كان يرى بقلبه قبل قلمه، ووضع يده على أسّ البلاء، إذ يقول: «في بداية القرن التاسع عشر بدأت مصر نهضتها مع اليابان، ثم حدث أن اليابان انضربت بالقنابل الذرية، ومصر انضربت بالتعصب الديني، فحدث الفارق».

«٣»

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

هكذا يقول العم جلال، وأظن أننا لو استخدمنا المخ في شيء آخر لتبدلت الأحوال، وما تكررت ذات الأحداث بنفس التفاصيل التي جرت منذ يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢.

في هذا التوقيت كان قد مر شهران على قيام ثورة يوليو، وتم اختيار شعار العهد الجديد «الاتحاد، والنظام، والعمل».

.. والتحق محمود السعدني بالعمل في مجلة «الكشكول»، واستقر أحمد رجب في «أخبار اليوم»، وحصلت فاتن حمامة على جائزة أحسن ممثلة.

.. وكشف مصطفى أمين في مقال في «أخبار اليوم» أن قائد الثورة هو جمال عبد الناصر، وذلك من خلال سلسلة مقالات تحت عنوان «سر الضباط التسعة» فغضب جمال عبد الناصر لذلك، وأمر الرقيب بعدم نشر بقية المقالات.

.. وصدر قرار بالعفو عن المتهمين بقتل المستشار الخازندار، والنقراشي، وذلك في إطار مصالحة ثورة يوليو مع الإخوان!

.. وصدر قانون تنظيم الأحزاب الذي نصَّ على قيام كل حزب بتطهير نفسه، أي إقصاء الأحزاب سيئة السمعة، وتقدم فتحي رضوان بإخطار إعلان قيام الحزب الوطني الجديد.

وسط هذه الأجواء الملتهبة وُلد العم جلال عامر الذي شاء القدر أن يرحل في أجواء مشابهة تمامًا!

فقد رحل في ١٢ فبراير عام ٢٠١٢ في اليوم التالي للذكرى الأولى لثورة يناير، وبعد أن صار واضحًا للجميع أن الثورة قد

انحرفت عن مسارها، وسارت في الاتجاه المعاكس، بفضل جماعة الإخوان وحلفائها، وبمساعدة المشير حسين طنطاوي والفريق سامي عنان.

لكن قلب صاحب القلب الأنقى لم يتحمل ما جرى فسقط مغشيًّا عليه، رغم أنه تحمَّل كثيرًا؛ فقد شارك في الحرب، وما أدراك ما الحرب، لكن في الحرب العدو واضح، بينما في الثورة بدا الأمر كأنه لا شيء واضحا على الإطلاق، ربما لذلك يقول: «كل شعوب العالم لا تعرف ماذا يحدث في المستقبل إلا الشعب المصري لا يعرف ماذا يحدث الآن».

العم جلال عامر مر كالطيف بيننا لنعرف أن المعجزات امتدت إلى عصرنا، ربما لذلك كان يدرك أنه سيأتي فجأة وسيختفي فجأة.. وقد حدث!

جبال من الإنسانية

«دائمًا يظل الحظ العاثر يمهِّد لحظٍّ سعيد، والحظ السعيد يمهِّد لحظٍّ عاثر؛ فأهلُ الحكمة لا يُغالون في الحزن، ولا يغالون أيضًا في الابتهاج».

عبد الوهاب مطاوع

رجـل جعل للقلم قلبًا!

«١»

روى حكيـم صينـي أن شـيخًا كان يعيـش فـوق تـلّ، ويملـك جـوادًا وحيـدًا محببًـا إليـه ففـرّ جـواده، وجـاء إليـه جيرانـه يواسـونه لهـذا الحـظ العاثـر فأجابهـم بـلا حـزن: ومـا أدراكـم أنـه حـظٌ عاثـر؟

وبعـد أيـام قليلـة عـاد إليـه الجـواد مصطحبًـا معـه عـددًا مـن الخيـول البرّيـة فجـاء إليـه جيرانـه يهنئونـه عـلى هـذا الحـظ السـعيد فأجابهـم بـلا تهلـل: ومـا أدراكـم أنـه حـظٌ سـعيد؟

ولم تمـضِ أيـام حتـى كان ابنـه الشـاب يـدرّب أحـد هـذه الخيـول البرّيـة فسـقط مـن فوقـه وكُسرت سـاقه وجـاؤوا إلى الشـيخ الحكيـم يواسـونه في هـذا الحـظ السيئ فأجابهـم بـلا هلـع: ومـا أدراكـم أنـه حـظ سيئ؟

وبعـد أسـابيع قليلـة أعلنـت الحـرب وجنـدت الدولـة شـباب القريـة والتـلال، وأعفـت ابـن الشـيخ مـن القتـال لكـسر سـاقه فـمات في الحـرب شـبابٌ كثـيرون.

وهكـذا دائمًـا يظـل الحـظ العاثـر يمهِّـد لحـظ سـعيد، والحـظ السـعيد يمهِّـد لحـظ عاثـر، فأهـل الحكمـة لا يُغالـون في الحـزن، ولا يُغالـون أيضًـا في الابتهـاج.

هـذه هـي قناعـات الكاتـب الكبـير والأديـب البديـع والإنسـان المبـدع عبـد الوهـاب مطـاوع، الصحفـي الـذي جعـل مـن بريـد القـراء أدبًـا راقيًـا، ورقيقًـا، ومهـمًا، ومؤثـرًا، ومسـيطرًا، وقـادرًا عـلى

تشخيص آلام الناس، والبحث عن علاج يُسكن أوجاعهم، منذ أن تسلم «بريد الجمعة» عام ١٩٨٢، وبدأت رحلته مع هموم القراء، فصار «البريد» أهم نافذة للقراء في الصحافة المصرية والعربية.

استخدم عبد الوهاب أسلوبًا راقيًا في الرد على الرسائل التي يختارها للنشر من آلاف الرسائل التي تصله أسبوعيًّا، وأحبَّ القارئ، ولم يتعالَ عليه، ولم يسفِّه من مشكلاته، ولم يضخِّم من أخطائه، ولم يخاطب القارئ يومًا من برج عاجي باعتباره الحكيم العليم، ولم يتعامل مع القارئ باعتباره أقل قامة وقيمة لكنه كان يفكر مع قارئه، ويحاول بصدق أن يجد حلا يَصلُح، ويُصلِح حياته، لذلك كان بمثابة الولي لمريديه من القراء الذين ينتظرون رأيه، ورؤيته، ومشورته وخبرته، وحكمته في أدق تفاصيل حياتهم، صباح كل جمعة في جريدة «الأهرام»، لذلك عندما رحل في أغسطس من عام ٢٠٠٤ كان هذا بمثابة الصدمة لهؤلاء المريدين الذين اعتبروا أنه برحيله لم يعد هناك مَن يمكن الوثوق به.

لم يتاجر بآلام أحد، وإنما ظلَّ كالجبل يحمل هموم البسطاء ويسير بها أينما ذهب، ويحاول حلها كلما أمكن.

«٢»

لكن لو لم يفعل سوى أنه جمع في تجربة واحدة محمود السعدني وأحمد رجب وأنيس منصور ومصطفى محمود وأحمد بهجت وسلامة أحمد سلامة، وغيرهم من أولياء الكتابة وجبابرتها، لكان هذا النصر يكفيه ويكفينا، وتهانينا!

هذا بالضبط ما فعله عبد الوهاب مطاوع حين تولى رئاسة تحرير مجلة «الشباب» وجعلها واحدة من أهم وأفضل وأمتع المجلات في الوطن العربي، وتربَّى عليها جيل بأكمله ظل لفترة طويلة لا يعرف سواها ولا يدرك أن لها بديلا، وظهرت قبلها وبعدها مجلات كثيرة لكن لم يستطع أحد أن يصل إلى ما وصلت إليه من رُقيٍّ مهني يصعب تكراره.

فأنا من جيل قرأ مجلة «الشباب» منذ أيام المدرسة، لكني تعرفت على كتب عبد الوهاب مطاوع في الجامعة، وأذكر جيدا المرة الأولى التي قرأت فيها للأستاذ عبد الوهاب مطاوع، حينذاك كنت في الطريق إلى قنا، ويومها كانت المرة الأولى التي أدرك أنه يمكن أن تنتهي من قراءة كتاب في جلسة واحدة لا تستغرق سوى ساعتين، كان هذا الكتاب هو «صديقي لا تأكل نفسك»، ولا أعرف كيف عرف أنني كنت آكل نفسي في هذه اللحظة! لكني على كل حال استجبت له، وتعلمت منه، وقررت قراءة كل ما أُتيح لي من أعماله، وقرأت أغلب كتبه، ومنها «أصدقاء على ورق» و«صديقي ما أعظمَك» و«انْدهِش يا صديقي» و«يوميات طالب بعثة» وغيرها، وتعلمت منها كثيراً، وأدركت أنه لا يمكن قراءة كتب عبد الوهاب مطاوع إلا إذا كان هناك قلم بصحبتك، فكل كلمة يكتبها كنت أشعر بحاجة إلى تدوينها في أجندة خاصة أعود إليها من وقت إلى آخر.

لكن المدهش أنني أصبحت مدمنًا شراء كتبه، لدرجة أنني كنت أشتري من الكتاب الواحد أكثر من ٥ نسخ، لأقوم بتوزيعها على أصدقائي في الجامعة، لأني شعرت أن القراءة تبدأ من عند هذا الرجل.

«٣»

لكن قيمة عبد الوهاب مطاوع الحقيقية أنه جعل للقلم قلبًا!

فقد كان إنسانًا عظيمًا قبل أن يكون صحفيًا كبيرًا، لكن أهم ما ميَّزه وجعله يجلس في مساحة وحده هو الاندهاش!

نعم، فالدهشة هي مفتاح شخصيته، وهي أيضًا بمثابة الباب الذي رأى عبر نافذته حلول المشكلات العظيمة، والهموم الكبيرة التي يواجهها القراء، ويوجهونها إليه، فقد كان يقول دائمًا «اندهش أنت أيضًا يا صديقي لكل ما تراه وتسمعه، فالدهشة بداية الطريق للمعرفة».

هذه هي الحقيقة التي وهبها الله لعبد الوهاب، منذ أن كان طالبًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة التي تخرج فيها عام ١٩٦١، ليعمل بعدها محررًا صحفيًا بقسم التحقيقات بجريدة «الأهرام» بعد أربع سنوات فقط من تولِّي الأستاذ محمد حسنين هيكل رئاسة تحريرها، واجتهد عبد الوهاب ولمعت موهبته، وظهرت على كتاباته، وترقَّى في درجات جريدة «الأهرام» حتى أصبح سكرتيرا لتحريرها عام ١٩٨٢، ثم نائبا لرئيس التحرير عام ١٩٨٤، ثم مديرا للتحرير ورئيسا للديسك المركزي بالجريدة.

وهكذا ظل عبد الوهاب يصعد سلم المجد المهني درجة درجة، لكن في كل خطوة كان يؤكد موهبته الاستثنائية في الكتابة والإدارة، لكن من أكثر الأشياء التي تأثر بها مطاوع -وتأثرتُ بها- هو ما قاله عباس العقاد لصالح جودت حين سأله: ماذا

تقـرأ الآن يـا أسـتاذنا؟ فأجـاب: أقـرأ كتابًـا عـن الممثلـة الفرنسـية بريجيـت بـاردو. فـردّ صالـح جـودت مندهشًـا: الأسـتاذ العقـاد يقـرأ بريجييـت بـاردو؟!

فقـال العقـاد: نعـم، فليـس هنـاك كتـاب أقـرؤه ولا أسـتفيد منـه شـيئًا جديـدًا فحتـى الكتـاب التافـه أسـتفيد مـن قراءتـه، أني تعلمـت شـيئًا جديـدا هـو مـا التفاهـة؟ وكيـف يكتـب الكتـاب التافهـون؟ وفيـمَ يفكـرون!

نريدُ حلاًّ!

«١»

التقيتُ المبدعة حُسن شاه وأجريت معها حوارًا في بيتها، وكان ذلك في الوقت الذي امتنعتْ فيه عن الكتابة في «أخبار اليوم» بسبب ممتاز القط رئيس التحرير آنذاك، فسألتها عن سر الخلاف والامتناع عن الكتابة وعن عدم ذهابها إلى الجريدة التي شاركتْ في بنائها، فقالت لي بنبرة قاطعة وحادة: «مش أنا اللي أتكلم عن خلاف مع واحد من دُور أولادي.. أنا كنت باروح الجورنال لما كان فيه التابعي ومصطفى وعلي أمين وهيكل والحمامصي وأحمد بهاء الدين وأنيس منصور.. دلوقتي الوحيد الذي بقيَ من هذا الجيل هو أحمد رجب ونادرًا ما يذهب إلى الجورنال»!

وبعد أن أنهينا الحوار أهدتني سيرتها الذاتية -التي كتبها الناقد طارق الشناوي- قائلة: «إلى ابني في الصحافة محمد توفيق، أهدي إليك سيرتي الذاتية علَّها تعطي لك صورة عن كفاح جيل من الأمهات من الصحفيات في مهنة البحث عن المتاعب».

فقد عاشت، رحمها الله، طوال حياتها مخلصة ووفية وصادقة في مشاعرها تجاه قارئها، فكانت تحترق وتتألم وتبكى بحرقة وتتوجع مع كل رسالة لا تجد لها حلا، لدرجة أن الأطباء نصحوها بالابتعاد عن قراءة رسائل القراء حتى لا يتأثر قلبها،

فكانـت تعيـش مـع القـارئ مأسـاته، وكان الفاكـس الـذي يرسـل عليـه القـارئ همومـه وشـجونه هـو فاكـس بيتهـا!

كانـت حُسـن شـاه تبحـث عـن حلـول للمشـكلات عـلى أرض الواقـع لا عـلى الـورق، وفـارق كبـير بـين الاثنـين، فالحلـول عـلى الـورق أسـهل وأيـسر وأسرع ودون جهـد، لكـن الحلـول عـلى الأرض تحتـاج إلى عـرق ودم، لكنهـا اعتـادت ذلـك منـذ أن تخرجـت في كليـة الحقـوق، حينـذاك حدثـت صدفـة غـيَّرت مسـار حياتهـا.

فقـد اختـارت فـور تخرجهـا في كليـة الحقـوق أن تمـارس مهنـة المحامـاة، وبالفعـل التحقـت بأحـد مكاتـب المحامـاة وعملـت محاميـة تحـت التمريـن، لكـن في هـذا التوقيـت التقـت عـلى غـير موعـد زميلهـا في الكليـة الـذي كان يكبرهـا بعامـين، وعـرض عليهـا أن تعمـل في الصحافـة ففكـرت ودرسـت الأمـر ثـم وافقـت وذهبـت معـه لتعمـل في مجلـة «الجيـل» التـي قـد صـار نائبـا لرئيـس تحريرهـا.

كان هـذا الزميـل هـو السـاخر الكبـير أحمـد رجـب، وطلـب منهـا أن تُجـري أول حـوار لهـا في الصحافـة مـع رجـل يونـاني يعمـل بالصناعـات اليدويـة الفنيـة، ثـم اقترحـتْ أن تُجـري حـوارا آخـر مـع زميلـة لهـا فاتنـة الجـمال تشـبه النجمـة سـوزان هيـوارت، فصـارت غلافًـا للمجلـة، فطلـب منهـا أحمـد رجـب أن تكتـب اسـمها عـلى الموضـوع، فوقَّعـت باسـمها الثـلاثي «حُسـن شـاه الهاجـع»، فضحـك أحمـد رجـب، وقـال لهـا: «إذا كان حُسـن شـاه لوحـده اسـم مكلكـع، وكـمان الهاجـع»!

وبعـد شـد وجـذب امتثلـت لكلامـه، واكتفـت بـ«حُسـن شـاه» فغضبـت عائلتهـا غضبًـا ظـل سـنوات طويلـة عالقًـا بالأذهـان لأنهـا تجاهلـت اسـم العائلـة، لكنهـا انطلقـت في رحلـة البحـث عـن

المتاعب، ولفتت الأنظار، والتقت مصطفى وعلي أمين، وأثنيا عليها، وصارت أحد من يُعتمد عليهم داخل مؤسسة «أخبار اليوم»، التي كانت مجلة «الجيل» جزءا منها، وتنقلت بين مطبوعات «أخبار اليوم» وتألقت، وكان حماسها هائلا، لدرجة أنها ذهبت إلى خط النار، حيث شاركت في عملية فدائية ضد العدوان الإسرائيلي في أعقاب هزيمة ٦٧.

لكن المدهش أنها لم تكن مراسلة عسكرية، بل كانت فقط تريد أن تنقل بالقلم والكاميرا إلى القراء حقيقة ما يجري في الضفة الغربية دون تكليف من الجريدة، وفجأة وجدت نفسها تزحف على الأرض بجوار الفدائيين الفلسطينيين، وتحمل بين يديها مدفع كلاشينكوف، وتطلق النار على العدو، وعاشت بين الأبطال على خط النار باسم «أم العبد»، وحين عادت لم يصدق أحد ما فعلته الصحفية الشابة، وصارت ملء السمع والبصر، وصار ما فعلته حديثًا يُروى بين الناس.

«٢»

قبل ذلك بسنوات كان اسمها قد لمع بفضل أم كلثوم!

ففي نهاية الخمسينيات كانت أم كلثوم قد قررت أن تقيم حفلة في بلدتها المنصورة بمناسبة العيد القومي للمحافظة، وطلبت من علي أمين أن تصطحب معها في هذا الحفل حُسن شاه، فوافق رئيس التحرير، وذهبت حُسن بصحبة أم كلثوم وفي سيارتها الخاصة إلى المنصورة، لكن بمجرد أن وصلت هناك، ورغم الود الشديد الذي كان بينهما طوال الرحلة، لكن شيطان الصحافة سيطر على عقل حُسن شاه -على حد تعبيرها-

وشعرت بأنه لا يمكن أن لا تخرج بجديد من هذا الحفل الذي كل تفصيلة تحدث فيه هناك من يرصدها ويرقبها ويترقبها؛ فهناك من يحلل ويدقق في كلمات أغانيها، وهناك من يصف بدقة أداءها، وهناك من يكتب عن الفستان والمنديل، وغيرها من التفاصيل التي سكنت قلوب محبي كوكب الشرق.

لكن فكرة أخرى طرأت على بال حُسن، وهي أن تترك الحفل وتذهب بعيدًا -بصحبة المصور الفذ فاروق إبراهيم- إلى مسقط رأس أم كلثوم، والبيت الذي وُلدت فيه، وهناك وجدت البيت مهجورًا تسكنه الأشباح، ومليئًا بالحجارة، ولا يوجد به سوى «بلاص»، وعلمت من الجيران أنه في هذا البقعة وُلدت أم كلثوم!

وبمجرد نشر الموضوع في مجلة «آخر ساعة» ثارت أم كلثوم، واتصلت بحُسن شاه وقالت لها: «أنا فيه ناس فعلوا أشياء أقل مما فعلتي بكثير جدًّا وضرّتهم وكان ممكن أضرّك، ولكن أنا لن أفعل لكي شيئًا سوى أنني لن أسمح لك برؤيتي مرة أخرى».

«٣»

وحدث ما أرادت أم كلثوم، وقُطعت كل السبل إليها، ولم تستطع قرابة عشر سنوات من هذه الواقعة أن تذهب إلى أي مكان توجد فيه أم كلثوم.

وحين التقيت حُسن شاه وسألتها: هل ندمتِ على ما فعلتِ مع أم كلثوم؟ أجابت: «شعرت بالندم حين وجدت أنني لا أستطيع الذهاب معها في جولاتها بعد النكسة لدعم الجيش

المصري، لكن لو عادت بي الحياة سأكرر ما فعلت بالضبط، ولكن هذا لا يمنع أنني ارتكبت نوعًا من الحماقة، كنت سأفعل ذلك لأن الصحفي بداخلي أكبر، ولكن أنا لو كنت أذكى ما كنت فعلت ذلك لأن هذه في النهاية أم كلثوم وأنا علاقتي بها خلال السنين العشر التي انقطعت علاقتنا فيها كان ممكن أعمل حاجات كتير، لكن هذه هي تركيبتي، وقد تكون تركيبة خطأ، لكن لا يوجد خطأ مُطلق، فقد فعلتُ ما يرضي ضميري دون النظر إلى العواقب!».

لكن في عام ٧٤ دقّ جرس تليفون البيت، وحين رفعتْ سماعة الهاتف وجدتْ المُتصل يقول بصوت أجشّ: «حُسن شاه موجودة»، فتعجبت حُسن وقالت لنفسها «مين ده اللي لا بيقول مدام ولا أستاذة ولا حاجة، يعني حسن شاه بتلعب معاك في الحارة»، فردّت بعنف: «مين عاوزها؟!».

فقالت: أنا أم كلثوم!

فرقصت حُسن فرحًا، ولم تصدق أن تسمع صوت أم كلثوم بعد كل هذه القطيعة، ولم تَدَعْها أم كلثوم تفكر كثيرًا، فقالت لها: أنا باكلمك عشان أنا شاهدت بالأمس فيلم «أريد حلاً»، وأنا أريد أن أقول إن الفيلم سيكون له بصمة في تاريخ السينما، وفي تاريخ المرأة.

سيدة الكتابة

«١»

الطيبون والأشرار خرجوا كلهم وراء نعش يوسف بك وهبي يودِّعونه إلى مثواه الأخير. بين صفوف المشيعين تساند محمود المليجي على توفيق الدقن يهمس له: «الظاهر خلاص، الدفعة مطلوبة وباين الحكاية بالدور يا تيفة»، ويرد الدقن مجففًا دموعه: «كله على ودنه يا ابوحنفي»!

ذلك المشهد رسمتْه على الورق سناء البيسي في أحب كتبها إلى قلبي «سيرة الحبايب». وروعة سناء أن رسمها يصف بدقّة، ويحلل برقّة، ويكشف الخفايا والخبايا، فهي ترسم بالكلمات تمامًا مثل زوجها الفنان منير كنعان الذي كان يبدع في رسم اللوحات، كلاهما يرسم، هي ترسم بالكلمات، وهو يرسم بالفرشاة.

ما حدث بين منير وسناء يشبه حكايات ألف ليلة؛ فقد رآها للمرة الأولى حين كانت طالبة في كلية الآداب قسم صحافة، ولم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، لكنه التقط في عينيها نورًا، ووهجًا، ورأى بداخلها جمالا أراد أن يسجله في واحدة من لوحاته التي تتصدر غلاف مجلة «آخر ساعة»، ووافقت طائعة، وسارت معه منساقة مبهورة منوَّمة -على حد تعبيرها- وجلست أمامه موديلًا يحتضن زهر المشمش، وأدمنت الجلوس أمامه ليرسمها، وكانت تمضي ساعات وهي تجلس في

وضع متحجر، تعاني جاهدة أن لا يهتز لها طرف أو ترتعش عيناها أو تسند فقرات عمودها الفقرى المتيبس لطول جلوسها على مقعد خشبي، لكن يهون التعب كله في لحظات للحوار والوئام والتهافت والتراحم والحب والارتباط ورسائله الخاصة التي يدندن لها بها عندما يستغرقه الرسم: «ياللي نويت تشغلني طاوعني وابعد عني.. إن حبيتك يبقى يا ويلك من حبي.. وراح أشْغل فكري وبالي عليك وأحبك وأفضل أعيش في هواك لحد ما ييجي يوم وألاقيك آمنت بحبي وجيت برضاك».

وذهبتْ إليه راضية مطمئنة، وتزوجا، وعاشا معًا ليغدو تأثيره وآثاره حاضرة دومًا في ما تقوم به، وما تنطق به، وما تنظر إليه، وما تنتقده، وما تفتقده، وما تسعى إليه، وما تتجنبه، وما تحبه، لذا تقول عنه في حوارها المهمّ مع الصحفية أمل سرور: «أَلَمْ يرسم على وجهي الابتسامة والغضبة وحُمرة الخجل وتهويمة الشجن.. أَلَمْ يُذِقْني عصارة الكرز ورحيق الياقوت ويسافر بي في حمرة الفجر والشفق وخدود الورد.. أَلَمْ يمنحني هِبَة عمري، ابني هشام».

«٢»

لم يصنع فارق الثمانية عشر عامًا حاجزا بين منير وسناء، فمنير وُلد في فبراير عام ١٩١٩، أما سناء فقد وُلدت يوم الجمعة الأول من يناير عام ١٩٣٧.

حينذاك أعلن أحمد حسين عن حزب «مصر الفتاة»، وتم الانتهاء من تصوير فيلم «سلامة في خير» لنجيب الريحاني، وعُرض فيلم «نشيد الأمل» بطولة أم كلثوم، وفيلم «ليلى بنت

الصحـراء» لكـن تـم إيقـاف عرضـه لاعـتراض الخارجيـة الإيرانيـة باعتبـاره يـسيء إلى أحـد الرمـوز الإيرانيـة.

وقـام رئيـس الديـوان الملـكي ببـث شـائعة أن «الوفـد» حـزب يسيطر عليـه الأقبـاط بقيـادة مكـرم عبيـد، فأُقيلـت وزارة «الوفـد»!

في هـذا التوقيـت وُلـدت سـيد الكتابـة سـناء البيـسي، وكان والدهـا يشـغَل منصـب مديـر مصلحـة الآثـار العربيـة، وكان أقـرب الأصدقـاء إليـه حسـن عبـد الوهـاب عـالم الآثـار الإسـلامية الـذي قـام بتحديـث قبـة الصخـرة في القـدس، أمـا والدتهـا فكانـت تـرأس لجـان الأوقـاف الأهليـة التـي تنـادي بحـل الوقـف عـلى أسـاس الـشرع، واسـتقبلها الرئيـس عبـد النـاصر في بيتـه بمنشـية البكـرى ليُنصـت إلى وجهـة نظرهـا.

حـار والدهـا في تسـميتها، فسـمّاها صديقـه عـالم الآثـار الإسـلامية الـذي قـام بتحديـث قبـة الصخـرة في القـدس «سـناء» لتحمـل المجـد والرِّفعـة لأبيهـا ولعائلتهـا ولمـصر بأسْرهـا، وظلـت الفتـاة الصغـيرة نهمـة بحـب المعرفـة، فكانـت لا تنـام إلا وقـد احتضنـت كتابًـا ينـام عـلى صدرهـا، فقـد ورثـت مـن أمهـا نهَـم القـراءة.

وكانـت أمنيـة والدهـا أن يراهـا يومًـا مثـل الدكتـورة عائشـة عبـد الرحمـن، بعدمـا لمـس عشـقها للورقـة والقلـم، لكـن لم يكـن هنـاك قسـم لدراسـة الصحافـة في كليـة الآداب، فـرأى والدهـا أن تغـدو محاميـة لتسـتعين بمكتبتـه القانونيـة العامـرة، وبالفعـل قدمـت أوراق نجاحهـا في شـهادة التوجيهيـة لكليـة الحقـوق جامعـة عـين شـمس.

وقبـل دخـول الكليـة بأيـام سـمعت صـوت صديقتهـا صـافي نـاز كاظـم ينطلـق في مدخـل البيـت الـذي كانـت تسـكنه في حـى العباسـية، تـصرخ قائلـة: «فتحـوا قسـمًا جديـدًا للصحافـة في جامعـة

القاهـرة»، فسـارع والدهـا لينقـل أوراقهـا مـن الحقـوق إلى الآداب تحقيقًـا لرغبـة ابنتـه.

وذهبـت سـناء إلى قسـم الصحافـة بكلية الآداب جامعـة القاهـرة، والتقـت الأسـتاذ مصطفـى أمـين، وكتبـت عـن لقائـه تقـول: «حـضر الأسـتاذ مصطفـى أمـين ليلقـي علينـا محـاضرة لم أفهـم معظمهـا، لأنـه كان ينفـث كلماتـه بـين أنفـاس سـيجارته التـي غرسـها بـين شـفتيه فضاعـت مـع الدخـان».

وقـرأ العمـلاق مصطفـى أمـين مـا كتبـت، فقـرر أن تعمـل في «أخبـار اليـوم»، وتدرجـت داخـل هـذه المؤسسـة التـي صنعـت أسـاطير الصحافـة، ثـم انتقلـت إلى «الأهـرام» لتلتقـي بنـت الشـاطئ، وتصـير صديقـة لهـا، وقريبـة إلى قلبهـا، بـل صـارت الدكتـورة عائشـة تمـدح كتاباتهـا، لتحقـق سـناء حلـم أبيهـا!

«٣»

تأثـرتُ بهـا كثـيرًا، وعجـزتُ عـن الكتابـة عنهـا طويـلا، وشـعرتُ أنهـا لم تحصـل عـلى مـا تسـتحق مقارنـةً بعطائهـا غـير المحـدود للصحافـة، وأشـعر دائمًـا أننـي مديـن لهـا، وأنهـا أسـتاذتي حتـى لـو لم نلتـقِ يومًـا، ولم تنشـأ بيننـا أي علاقـة.

وربمـا مـن أسـباب أننـي عجـزتُ طويـلا عـن الكتابـة عنهـا هـو أن المبـدع عمـر طاهـر كتـب عنهـا فأوجـز كل مـا يُقـال، وأغلـق -كعادتـه- البـاب خلفـه عـلى مـن يـأتي بعـده.

لكـن الكتابـة كلهـا لا تعطـى سـيدة الكتابـة حقهـا، فقـد صنعـت مـن مجـلات المـرأة شـيئًا تجـب دراسـته وتدريسـه وتعميمـه، وخلقـت فرعًـا جديـدًا في الصحافـة كان قبلهـا هامشًـا وهامشـيًا،

ومعها صار مهمًّا ومركزيًّا، وبعدها خرج الجميع من عباءتها.

فحين شرعت سناء البيسي في إصدار مجلة «نصف الدنيا» في فبراير ١٩٩٠ طلب منها ثلاثة من جبابرة الكتابة أن تحجز لهم صفحات أسبوعية يكتبون فيها.

الأول هو الأستاذ أحمد بهاء الدين، أما الثاني فهو العم نجيب محفوظ الذي قرر أن يمنحها كل ما يجود به قلمه ليكون حكرا لها وحدها، فخرجت على صفحات «نصف الدنيا» أصداء سيرته الذاتية.

أما الثالث فهو العملاق يوسف إدريس الذي طلب منها أن تحجز له الصفحة الأخيرة ليكتب فيها مذكراته، وقال لها يومها: «سأكتب لأول مرة قصة حياتي الحقيقية من بداية مولدي طفلا في قرية البيروم، سأكتب أخطر أعمالي الأدبية التي فيها تعرية للنفس والتاريخ والأصل والنسب والأسباب والمسببات ودور الأم والأخت والجدة وأصل المعرفة».

وبدأ إدريس يكتب فصلا وآخر وآخر، ويواصل اعترافاته بجرأة لم يصدقها أحد، فقد كانت عبارات الأديب الجريء تتجول بحرية جامحة، وظل يكتب أحداث حياته وفجأة وجدت صوته يعتذر عن التكملة، وحاولت سناء أن تثنيه عن قرار الانقطاع عن الكتابة لكن دون جدوى، ولم يكتمل هذا العمل الأدبي الذي حمل عنوان «ملكة» الذي كان يعتبره إدريس الأهم في حياته.

ما حققته سناء البيسي في مجلة «نصف الدنيا» كان بالدنيا كلها، فلا يمكن أن يدَّعي أحد أنه أتى بما لم تأتِ به سناء البيسي، فقد صنعت كل شيء، ما يخطر ببالك، وما سيخطر في بال الأجيال القادمة.

فقد كان القارئ يبحث عن هذه المجلة المتخصصة في شؤون

المـرأة رغـم أنهـا كانـت الأعـلى سـعرًا، لكنهـا كانـت الأغنـى فنًّـا في السـوق الصحفيـة، لـذا كانـت تَنْفَـد عـن آخرهـا، وعـلى الرغـم مـن أن سـعر المجلـة -بالهديـة- كان خمسـة عـشر جنيهـا، لكنهـا كانـت رائـدة «فـن المرتجـع صفـر»!

وهو فنٌّ لـو تعلمون عظيم!

محاكم النقد!

مـن حـق أصغر كومبارس أن يصغـي إليه الناس ويحترموه، لكن الجمهور المتوحش اعتقد أنه اشـترى كل شيء بفلوسـه!

سامى السلاموني

ناقد أحبَّ مَن ينتقدهم

«١»

كان يحب مَن ينتقدهم، وينتقد مَن يحبهم!

وكان يمسك بين يديه سيف الناقد الحق الذي لا يبغي جزاءً ولا شُكورًا، لكنه أيضًا كان يحمل قلب مُحب بحق لكل مَن يكتب عنهم، فلم يُضبَط مرة واحدة متربصًا أو مترصدًا لأحد، فلم يكن ينتقد لينتقم، وإنما ليجدد ويطوِّر.

وكم من كُتَّاب لم يكن يعرفهم أحد، وحين سلَّط عليهم ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق -على حد تعبير شقيقته فريدة. كان يدرك أن ما يكتبه يجب أن يصل إلى القارئ مباشرة، فلم يتقعر أو يستعرض في كتاباته بل كان واضحًا وجاذبًا، فلم يطغَ عمق فكرته على متعة سرده، ولم تطغَ روح الناقد على بساطة التعبير.

هذا هو رجاء النقاش، الناقد الكبير والإنسان النبيل والمثقف الذي كان يثق بنفسه فيمجِّد مواهب الآخر -مثلما وصفته سناء البيسي- فلم يجد أي غضاضة في أن يكتب كتابًا ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير عن شاعر شاب أصغر منه سنًّا، وأقل منه شهرة، وأن يصفه بشاعر الأرض المحتلة، ليكتشفه ويقدمه للناس ليصير اسمه علامة في تاريخ الشعر، ويصبح الشاعر الكبير محمود درويش. والمدهش أنه رغم كونه بالأساس ناقدًا أدبيًّا فإنه كتب كتابًا كاملا عن الإمام المراغي شيخ الأزهر، ربما

بسبب العبارة الأهم والأجمل والأروع التي قالها الشيخ الجليل «قدّموا لي أي شيء ينفع الناس وأنا آتيكم بسند له من الشريعة الإسلامية»، فقد وقعت هذه العبارة في قلب النقاش الذي وجد نفسه قد وقع أسيرا لصاحبها.

وربما لأنه تذكّر والده الشيخ عبد المؤمن، وجدّه الذي كان مقرئًا للقرآن لذا يقول: «إنني استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفني القادر على التأثير الكبير في النفس، وكنت شغوفًا بحفظ القرآن الكريم في السن المبكرة، وقد ساعدني والدي عبد المؤمن النقّاش على ذلك لأنني كنت أجد صعوبة في قراءة أي سورة وحدي، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقًا رفيعًا سليمًا يمكّنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البدهي أنها واجب على الجميع، ولقد ساعدني على تذوق القرآن أن جدي كان مقرئًا للقرآن في القرية وكان صاحب صوت جميل».

«٢»

في عام ١٩٥٢ ترك رجاء أسرته الريفية البسيطة، وأشقاءه السبعة، الذين حاربت الأسرة من أجل تعليمهم جميعا، في قرية «منية سمنود» بمحافظة الدقهلية، واتجه إلى القاهرة في الوقت الذي لم يكن أحد من أبناء طبقته يجرؤ على دخول محلات «شملا»، و«شيكوريل»، و«جروبي»، فهذه الأماكن كان مقصورة

علـى الباشـوات والبهـوات، وكان لا يحـق لصغـار الموظفـين سـوى التسـكع في شـوارع وسـط البلـد، والنظـر إلى الفاترينـات وواجهـات المحـلات دون أن يضـع أحـد منهـم قدمـه داخلهـا، وكان المصريـون غربـاء يعيشـون عـلى هامـش الحيـاة -عـلى حـد وصـف الدكتـور يونـان لبيـب رزق.

لكـن قامـت الثـورة، والتحـق رجـاء بجامعـة القاهـرة ودرس في كليـة الآداب وتخـرج في قسـم اللغـة العربيـة عـام ١٩٦٥، ثـم ذهـب للعمـل محـررًا في مجلـة «روزاليوسـف» لمـدة عامـين، ثـم انتقـل للعمـل محـررًا أدبيًّـا في مؤسسـة «أخبـار اليـوم»، ولمـع النقـاش وبـدا عَلـمًا ونجـمًا وسـط كوكبـة مـن كبـار مثقفـي مـصر عـلى مـدار تاريخهـا، فجلـس مـع العقـاد وطـه حسـين، وصـادَقَ نجيـب محفـوظ ويوسـف إدريـس، واكتشـف محمـود درويـش والطيـب صالـح، وغيرهـم، والتقـى جـمال عبـد النـاصر حين دعـاه عـام ١٩٦٣ ضمـن أعضـاء المؤتمـر الأول لكتـاب آسـيا وإفريقيـا فدخـل قـصر عابديـن للمـرة الأولى لينبهـر بنـاصر وبعابديـن ويصـف المشـهد قائـلا: «وقفنـا في صفـوف متراصّـة ومـرّ علينـا عبـد النـاصر وصافحنـا واحـدًا واحـدًا فرأينـاه عـن قـرب، وأدركنـا صحـة مـا كان يقـال عنـه مـن أن لـه هيبـة وسـحرًا وجاذبيـة وعينـين مليئتـين ببريـق اسـتثنائي يـأسر القلـوب.. كان هـذا كلـه صحيحًـا، فقـد مسّـتنا كهربـاء عبـد النـاصر فاهتـزت منـا الأعصـاب والمشـاعر، وأدركنـا جميعًـا أننـا في حـضرة رجـل عظيـم».

ويسـتمر النقـاش في وصـف أجـواء اللقـاء قائـلا: «وبعـد أن انتهـت المصافحـات انتقلنـا إلى قاعـة العشـاء التـي تبهـر العيـون وتخطـف الأبصـار مـن فـرط جمالهـا وبهائهـا، وكان سـقفها كلـه مطليًّـا بالذهـب، وكلـما نظرنـا إلى هـذا الجـمال وهـذا الجـلال

شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالي ألف ليلة، مع فارق واحد هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان، بل كنا في معظمنا فقراء أبناء فقراء، ومَن كان منا أفضل من ذلك فهو في أحسن الفروض من متوسطي الحال، وكنا ندرك جميعًا أنه لولا عبد الناصر الذي فتح لنا الأبواب وقال لنا ادخلوا، ما كان لنا أبدًا أن ندخل هذه القاعة الذهبية في قصر عابدين، ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسيء بنا الظنون، فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين».

«٣»

وقبل ثلاثين عامًا من لقاء النقاش وعبد الناصر، وتحديدا في ثلاثينيات القرن الماضي كان الدكتور إسماعيل أحمد أدهم قد أصدر كتابًا عنوانه «لماذا أنا مُلحد؟» وقد تم طبع الكتاب وتوزيعه، ولم يتعرض للمصادرة، وكل ما حدث هو أن بعض المثقفين في ذلك العصر أصدروا ردًّا على هذا الكتاب، ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي الذي أصدر كتابًا بعنوان «لماذا أنا مسلم؟» وفيه رد علمي قوي ومُقنِع على دعوى الإلحاد التي نادى بها الدكتور أدهم في كتابه الغريب.

والمدهش أنه لم يترتب على كتاب «لماذا أنا مُلحد؟» أي فتنة فكرية أو دينية، ولم يتعرض صاحب الكتاب للاعتقال أو المحاكمة، ولم يحاول أحد أن يقتله رغم إعلانه الصريح للإلحاد، وفي ذلك أن أصحاب الإيمان في ذلك العصر كانوا على ثقة بأنفسهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من الإيمان القوي العميق،

وقد وجدوا أنهم قادرون على التصدى لدعوى الإلحاد بالحجة والبرهان والمنطق، وبهذه الطريقة انتصروا في معركتهم للدفاع عن الإيمان.

رجاء النقاش هو من روى هذه الواقعة، وجعل من هذه الواقعة درسًا يجب أن يتعلمه كل جيل يظن في نفسه أنه قد بلغ حد الكمال، وكشف ما جرى لصاحب الكتاب الذي ساءت أحواله، واضطربت أعصابه، وامتلأ عقله بالتشويش والارتباك، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره؛ فقد وُلد في نفس العام الذي وُلد فيه نجيب محفوظ في الإسكندرية، لكنه لم يعد أمامه أي ضوء ينير طريق العمر، ولم يعد يتحمل، فقرر الانتحار، وألقى بنفسه في البحر!

وخرجت الصحف في اليوم التالي تقول: انتحار صاحب كتاب «لماذا أنا مُلحد؟».

رئيس محكمة النقد!

«١»

هو ذلك الرجل الذي لا تبهره الصورة لكن ينظر إلى خلفيتها، ولا تخطفه الكلمات البراقة، وإنما يبحث عن معانيها الحقيقية، ولا تجذبه الأضواء حتى وإن وصلت إلى أقرب مَن يجلسون معه ولم تصل إليه، ولا تشغله المناصب حتى وإن كانت الضمان الوحيد لحياة كريمة، فقد عاش أغلب عمره لا يملك أربعة جدران يعيش فيها، وكان كلّما وجد شقة مناسبة اكتشف أن البيت آيل للسقوط، وحين وجد السكن الدائم كانت حياته قد قاربت على الانتهاء.

هو السامي بحقّ، سامي السلاموني، الناقد والزاهد والمثقف والمفكر والساخر، فقد كان مفكرا سينمائيًا، وناقدًا لاذعًا، وساخرًا كبيرًا، يهاجمك بحدة وبعنف لكن بحب، فلم يكن يكره مَن ينتقدهم، فقد كان يؤمن بعبقرية يوسف شاهين لكنه انتقده بشدة حين اختار لبطولة فيلم «اليوم السادس» محسنة توفيق ثم فردوس عبد الحميد ثم سعاد حسني ثم داليدا، وتساءل السلاموني: كيف يصلح لسعاد حسني ومحسنة توفيق ما يصلح لداليدا؟ هذا يدل على أن شاهين يعتبر الممثلين مجرد قطع شطرنج!

وحين شاهد فيلم «خلّي بالك من زوزو» الذي كتبه وأنتجه صلاح جاهين، انتقد الفيلم بشدة في مقال طويل وقال: «إن

الفيلم يتناقض مع تاريخ جاهين الفني والفكري والدور الذي لعبه كفنان ملتزم بقضايا وطنه، وجعل جيلا كاملا من الفنانين الشبان مَثَلهم الأعلى صلاح جاهين».

هكذا ظل سامي السلاموني دائمًا، يمكن أن تخالفه الرأي لكن لا يمكن أن تختلف على موهبته وقدراته وصدقه وعلمه؛ فقد تخرج في المعهد العالي للسينما، وحصل على الدراسات العليا في الإخراج عام ١٩٧٣، علاوة على ليسانس الآداب قسم صحافة.

«٢»

كان نحيل الوجه، له حسنة بارزة، وأنف طويل يقسم الوجه إلى قسمين، فكأن العينين تنظران من خلف قضيب يفصل بينهما في حسم وصرامة، أما رأسه فقد نحل بفعل الزمن فلم تكن شعرة واحدة فيه إلا وقُصفت أو خُطفت، ولكن الرأس كان مناسبا لجسد ضئيل كحزمة من الضوء تنبعث من كشاف سيارة على الطريق السريع، ولقامة قصيرة تمشي بخطًى سريعة مهرولة، ولكن في انضباط وحنكة لا تتوافر إلا لصعلوك جوَّاب آفَّاق في رحلة دؤوب.

هكذا وصف خيري شلبي، المبدع سامي السلاموني، ذلك المثقف الذي تعلق بالقراءة، فقد تعود منذ كان طفلا صغيرًا أن يذهب صباح كل يوم لشراء الصحف والمجلات لوالده، وكان يجلس في أي مكان يقابله ليقرأها قبل أن يعود إلى أبيه، فوقع أسيرًا في هوى الصحافة، وتمنى أن يصبح واحدًا من نجومها، فبعد أن حصل على شهادة التوجيهية، رحل إلى القاهرة ليكون قريبًا من حلمه، ولكن حدث ما قلب الموازين رأسًا على عقب.

فقد رحل والده، تاركًا خلفه أولاده الصغار أمانة في رقبة ابنه سامي الذي اضطرّ إلى أن يعمل قارئًا لعدادات الكهرباء، وأن يسكن في حجرة صغيرة في بيت آيل للسقوط في حى بولاق، لكنه تغلب على كل هذا، وعمل ودرس، وحصل على أكثر من شهادة، وأصدر عدة كتب، وقام بعمل العديد من الأفلام التسجيلية، وحصل على العديد من الجوائز في النقد والسيناريو والإخراج.

لكنه لم يترك هذه الحجرة «وش السعد عليه» حتى حين صار مشهورًا، ولم يتسلل الغرور إلى قلبه أو قلمه الذي ينتقد أعظم نجوم الفن من مكتب صغير في حجرة متواضعة اضطر إلى أن يغادرها حين تقرر هدمها!

«٣»

ظهر السلاموني في مشهد واحد فقط، في فيلم «الحرّيف»، لكن الدور كان بسيطًا وهامشيًّا، فهو لم يحلم أن يكون ممثلا، فهو يدرك أنه لا يملك هذه القدرات، لكنه بحث كثيرًا عن اكتشاف مواهبه، فقد استمر ثلاثة أشهر كاملة يكتب أولى قصصه القصيرة، وعندما انتهى منها أخذها وذهب إلى عبد الفتاح الجمل الذي كان مشرفًا على الملحق الأدبي والفني في جريدة «المساء»، ولكنه سرعان ما تلقى أولى صدمات حياته العملية في عالم الكتابة.

فلم يُعجَب عبد الفتاح الجمل بقصة سامي السلاموني، ونصحه أن يتجه إلى كتابة المقال، وبالفعل اتجه إلى المقال النقدي، وحين نشر أول مقال له حظيَ باهتمام بالغ لدرجة

جعلت سامي يشتري مئات النسخ من الجريدة ويوزّعها على الأقارب والأصدقاء، بل ويرسل بعض النسخ إلى أهل قريته «سلمون القمّاش» في محافظة الدقهلية!

لكن بعد نشر هذا المقال انطلق كالشهاب، عارفًا طريقه الذي لم يَحِد عنه أبدًا، فقد كان يرى أن الناقد مثل القاضي الذي يجلس على منصة العدالة متجردًا من أي هوى شخصي -على حد تعبير الأستاذ عادل حمودة- لذلك كان يدفع ثمن تذكرة السينما من جيبه، ولا يكتب في كثير من الأحيان إلا بعد أن يشاهد الفيلم أكثر من مرة، ويسجل ملاحظاته على الفيلم في ورقة صغيرة يكتبها على ضوء خافت وهو جالس في السينما.

لم يكن السلاموني صديقًا إلا لعدد محدود من النجوم عرفهم قبل أن يصبحوا نجومًا مثل أحمد زكي، وهذا بدهي لناقد لا يقف إلا مع مَن يراه على حق، فذات مرة احتدت الفنانة شهيرة على جمهور المسرح الذي قاطعها، فشتمتهم وانسحبت، وخرجت الأقلام الحادة تمزقها تمزيقًا، لكن سامي السلاموني قال: من حق أصغر كومبارس أن يصغي إليه الناس ويحترموه، لكن هذا الجمهور المتوحش الذي يعتقد أنه اشترى كل شيء بفلوسه يستحق ما فعلته شهيرة!

تلك الواقعة التي رواها الدكتور أحمد خالد توفيق، تؤكد أن هذا الرجل انتقد كل شيء حتى الجمهور ذاته!

لكنه بجانب النقد لم يكفّ عن شيئين هما الغضب والتدخين الذي كان ينفّث فيه عن غضبه، لذلك لم يتحمل قلبه، وضاقت شرايينه، ورحل في يوليو ١٩٩١ بعد أن أتم عامه الخامس بعد الخمسين.

فرعون في شوارع القاهرة!

«١»

كان بمثابة فرعون بُعث ليسير في شوارع القاهرة في القرن العشرين، احتفظ لنفسه بكل سمات الفراعنة كما نشاهد تماثيلهم المحنطة، ينطلق بخطى ثابتة وواثقة، وشموخ وهدوء، ويبدو عملاقا رغم قصر قامته!

هكذا بدا الأديب الأثري كمال الملاخ لكل من رآه وعرفه، لذا كان بدهيًا أن يكون مختلفًا ومخالفًا للأنماط السائدة، وفريدا في تفرده، ومتفردا في ثقافته؛ فجمع بين دارسة الفنون الجميلة، وعمله كمهندس متخصص في شؤون الآثار، وقدرته على الكتابة العميقة دون تعقيد، ليجمع بين عضوية نقابة الصحفيين، وعضوية الجمعية الجغرافية العالمية في الولايات المتحدة التي اختارته عضوًا فخريًا بها مدى الحياة.

قيمة الملاخ الكبرى أنه نموذج مدهش لما يجب أن يكون عليه الصحفي؛ فهو عالم وفنان وأديب، وقد بدت مواهبه واضحة منذ كان طالبا لم يتجاوز عمره الستة عشر عامًا، حين لمعت في ذهنه فكرة أن يدعو عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين -الذي كان يقيم في الفيلا المقابلة لكلية الفنون بالزمالك- ليفتتح معرضه، ويشاهد لوحاته، وبالفعل حضر طه حسين، وطاف به الملاخ شارحا لوحاته في ثقة وهدوء.

ومرت سنوات والتقيا مرة أخرى بعد أن صار الملاخ معيدًا

بقسم العمارة في كلية الفنون الجميلة، وفي أثناء سير الملاخ بجوار عميد الأدب العربي الذي كان يعمل مستشارًا فنيًّا لوزارة المعارف، قال مخاطبا الملاخ: «أنا سمعت بموهبتك من توفيق الحكيم، وأتمنى أن تنمّيها بدراسة الآثار»، فاندهش كمال وقال: «وأنا مالي ومال والآثار، فقد عقدتُ العزم على أن أكون مع الأيام أستاذًا للعمارة والفن؟!»، ولكن العميد رد بحسم: «وهل الآثار إلا عمارة وفن؟!».

واستجاب الملاخ والتحق بالجامعة لدراسة الآثار، وحصل على دبلوم عالٍ في الآثار المصرية مثل كبار علماء الآثار، ثم صار مهندسا ومديرا للأعمال في منطقة الهرم، بعد أن جاب الصعيد منقِّبًا ومتفحصًا آثاره.

«٢»

وفي ٢٥ مايو ١٩٥٤، طلب كمال الملاخ من مصلحة الآثار أن يعيد البريق إلى الهرم الأكبر بتنظيف الطريق المؤدى إليه من الرمال المتراكمة فوقه، فتمت الموافقة وبدأ العمل، وفي أثناء عملية التنظيف جاءه كبير العمال ليقول له: لقد عثرنا على «دبش»!

شعر الملاخ أن هناك شيئًا ما خلف هذا «الدبش»، فبدأ النّبْش خلفه، وقام بحفر ١٨٠ مترا وراء هذا الحجر الكبير فاكتشف سورا يبلغ طوله نحو ١٥٠ مترا، ثم عثر على أحجار جيرية تحت السور، ثم بدأ يطرق أبواب الأحجار، فشاهد شيئًا أسود لم يحدده، لكن بعد أن تفحصه، انتفض صائحًا في من حوله «مركب.. دي مراكب الملك خوفو يا جماعة»!

كانت هذه المراكب عبارة عن عدة ألواح خشبية يبلغ طول الواحد منها نحو ٤٣ مترًا، وعرض اللوح ستة أمتار، ولكنها مفككة الأجزاء، فأعطى الملاخ الإشارة لإعادة نفس ترتيب وترقيم وتركيب هذه القطع الخشبية القديمة التي وُجدت في حفرتين بجوار الهرم الأكبر ليرى العالم ما كانت عليه مراكب الشمس منذ ما يقرب من ٥٠٠٠ عام، وقد كان فراعنة مصر واضعين علامات بين الأجزاء المتشابهة والتي يتداخل بعضها مع بعض. ومن العجيب أن جميع الأجزاء لا يربطها مسمار ولكنها يتداخل بعضها مع بعض.

لم يُصدق الملاخ نفسه من الفرحة بعد اكتشافه لواحد من أكبر الاكتشافات الأثرية في القرن، فخرج معلنًا عن الاكتشاف الكبير الذي احتفى به كل علماء الدنيا، ونقلته وكالات الأنباء، وعُرفت مراكب الملك خوفو باسم «مراكب الشمس» لكن حين عاد الملاخ إلى مقر عمله في مصلحة الآثار وجد ورقة مُعلقة باسمه في كشف «الخصومات»، فقد عوقب بخصم عشرة أيام من راتبه لأنه أعلن عن الكشف دون إذن!

لم تكن مراكب الشمس هي السيمفونية الوحيدة التي عزف عليها الدكتور الملاخ، فالرجل له إنجازات لا تقل أهمية عن مراكب الشمس؛ إذ عمل على ترميم آثار جزيرة فِيَلَه بأسوان، وكشف عن حمام سباحة يوناني قديم، ورمَّم هيكله، وقام بترميم قلعة برج العرب، وفي سنة ١٩٤٩ قام بترميم أهرام الجيزة من الداخل والخارج.

«٣»

وقبل واحد وعشرين عامًا، وتحديدًا في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٨، بعد أربع سنوات من اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وبداية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بانتصار إنجلترا وحلفائها وهزيمة ألمانيا، قرر السلطان أحمد فؤاد أن تتحمل الخزانة المصرية ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه ديونًا كانت لمصر على إنجلترا في أثناء الحرب، وذلك اعترافًا بجميل بريطانيا التي حمت البلاد من خطر الغارات! ولم يعرف المصريون هذا القرار الذليل في حينه.

وتقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي بطلب للمندوب السامي البريطاني للسفر إلى لندن لعرض مطالب مصر لكنه لم يستجب، وقال لهم: «مَن أعطى لكم حق التحدث نيابة عن الأمة؟»، فقرر الثلاثة تكوين جبهة ضمَّت عددًا كبيرًا من رموز العمل الوطني لجمع توكيلات من الشعب المصري، وقد نَصّ التوكيل على: «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات... في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تامًّا»، وتم طبع التوكيل ليلا وبأعداد كبيرة خرج بها آلاف الشباب إلى مختلف المحافظات.

كان هذا العام حافلا بالأحداث الهائلة، وبميلاد عدد كبير من النجوم اللامعة في السياسة والفن والأدب والصحافة والثقافة، فقد وُلد الزعيم جمال عبد الناصر، والرئيس أنور السادات، والفنانة ليلى مراد، والمطرب والملحن الشيخ إمام، والأديب

المسرحي نعمان عاشور.

في هذا العام وُلد الأديب والأثري والصحفي والفنان كمال يونان الملاخ في محافظة أسيوط، أحبَّ أسرته وارتبط بوالدته بشدة، وقبل أن يصل لسن المدرسة انتقل والده للعمل بأحد البنوك في المحلة الكبرى، فتلقَّى الطفل كمال تعليمه الابتدائي هناك، ثم أتمَّ تعليمه الأساسي في القاهرة في مدرسة «السعيدية» ليلتحق بعدها بكلية الفنون الجميلة قسم العمارة ليصقل موهبته، وبدأ حياته العملية مهندسًا معماريًّا، ثم ضابط احتياط بسلاح المهندسين، ثم انتقل للتدريس في كلية الفنون الجميلة ومعهد السينما والجامعة الأمريكية بالقاهرة، قبل أن يتجه إلى بلاط صاحبة الجلالة ليعمل رسامًا ثم ناقدًا فنيًّا في جريدة «الأهرام» عام ١٩٥٠.

وفي أثناء كتابته في «الأهرام» كان صاحب فكرة إقامة مهرجانات سينمائية دولية في القاهرة والإسكندرية فصار أول رئيس لمهرجانَي القاهرة والإسكندرية السينمائيَّين، وكتب المادة العلمية لـ١٨ فيلمًا ثقافيًّا قصيرًا عن الفراعنة، وشارك في ترميم أبو الهول والأهرامات، وقدم لـ٣٢ كتابًا في شتى فروع الثقافة من بينها «صالون من ورق»، و«حكايات صيف»، و«النار والبحر»، وهي الكتب التي تسجل براعة كاتب بدرجة عالم.

إلى الذيـن يحبون الحقيقة

من أخطر عيوب مصر أنها تسـمح للرجل العادي المتوسـط، بل للرجل الصغير، بأكثر مما ينبغي وتُفسـح له مكانًا أكبر مما يسـتحق.

جمال حمدان

عذوبة أحمد بهجت!

«١»

أجمل شيء في الدنيا هو الفُرجة!

متعة المتع أن تكون مشاهدًا للعصر، لا شاهدًا عليه، ومتفرجًا عليه لا منغمسًا فيه. إن السلامة كل السلامة تقبع في ذلك، وأنا رجل مسالم بالفطرة، وهذا معناه أنني مؤرِّخ بالفطرة، لست عضوًا في جمعية للمؤرخين، ولم يطلب مني أحد أن أؤرخ لشيء، غير أن عينيّ لا تكفَّان عن التجول والملاحظة والتأمل!

التأمل وحده هو من جعل عمنا أحمد بهجت يملك تراثًا بديعًا يجعله يجلس في قبره آمنا مطمئنا راضيا عن عمل يُنتفَع به.

ففي كل عام تتم الاستعانة بجزء من هذا التراث لتقديم عمل رمضاني مهمّ ومحترم ومختلف وجاذب، فأحمد بهجت هو صاحب «قصص الإنسان في القرآن»، و«قصص الحيوان في القرآن»، و«أنبياء الله»، و«تأملات في عذوبة الكون»، و«الطريق إلى الله».

لكن في طريق أحمد بهجت إلى الله أخطأ في أربعة أشياء، يقول عنها: «توهمتُ أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما سِرتُ قليلا في الطريق رأيتُ ذِكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، ورأيته قد طلبني أولا قبل أن أطلبه... ذكرني الله قبل أن أذكره: حين صنع آدم بيديه

وأمـرني أن أسـتقر ذرة في كيانـه انتظـارًا ليـوم الخـروج.

وعرفنـي اللـه قبـل أن أعرفـه: خـلال رحلتـي الطويلـة مـن ظهـر آدم إلى ظهـور أبنائــه إلى سـيقان النبـات إلى حشــائش الأرض إلى أجنحــة الفــراش الملـوّن إلى ثمــار الأشـجار إلى رحــم الأم إلى ظهــر الحيــاة.

وأحبنـي اللـه قبـل أن أحبـه: حـين هـدى أبي فآمـن بنـوح وركـب سـفينته.

عرفـت أيضًـا أن اللـه طلبنـي قبـل أن أطلبـه: طلبنـي حـين سـار إبراهيـم بقدميـه الكريمتـين في الخـلاء آلاف السـاعات حتـى تشـققت قدمـاه وسـال منهـا الـدم كى يبنـي لي بيتًـا أتوجـه إليـه في الصـلاة».

«٢»

حــين التقيــتُ الأســتاذ أحمــد بهجــت في مكتبــه في جريــدة «الأهــرام»، ويومهـا كنـت مـا زلـتُ طالبًـا في الفرقـة الثانيـة، وكنـت أتابـع كتاباتــه بشـغف في «الأهــرام» ومجلــة «الشــباب» وأنتظـر حواراتـه المحـدودة جـدًا، وكنـت أحمـل سـؤالا واحـدًا إليـه يهمنـي أن أعـرف جوابـه لـكي أتعلـم لا لـكي أحصـل عـلى حـوار، سـألته: كيـف يمكـن لصحفـيّ شـاب أن يصنـع أسـلوبًا يعرفـه القـارئ مـن خلالـه؟ فأجـاب قائـلا: «إن أهــم مـا يفعلــه الصحفــي في بدايـة حياتـه المهنيـة هـو أن يجـد كاتبًـا كبـيرًا يقلـده، ولكـن ينبغـي أن لا يسـتمر هـذا التقليـد إلا لفـترة محـدودة حتـى يمتلـك الصحفـي أدواتـه ويسـتطيع صياغـة أسـلوبه الخـاص، ويختـار طريقًـا لا يسـير فيـه أحـد سـواه، هـذا مـا فعلتـه مـع توفيـق الحكيـم، فقـد كنـت أحفــظ مفرداتــه لدرجــة أننــي كنــت أحفــظ مقاطــع مــن كتبــه،

وظللت كذلك حتى ابتكرتُ أسلوبي الخاص الذي لا يشبه أحدًا، ولكن هذا الأسلوب صنعته قراءة واعية، فالكاتب الجيد ينبغي أن يكون قارئًا جيدا جدًّا».

هذا هو الدرس الذي لم أنسه، ولا أظن أنه من الممكن نسيانه، فلا يمكن أن تكون كاتبًا إلا إذا كنت قارئًا محترفًا، لكن مستوى الاحتراف هو الذي يختلف، ففي جيل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كان مَن يقرأ مئة ألف كتاب هو كاتب متوسط، ثم في الجيل التالي صار مَن يقرأ خمسين ألف كتاب كاتبًا جيدًا، وظل الحال هكذا حتى صار مَن يقر أ كتابين يظن نفسه مثقفًا، ومحللا، وخبيرًا استراتيجيًا، ومفكرًا أيضا!

لكن أحمد بهجت نشأ وكبر وصار نجما في جيل أغلبه اشترى بيتًا كاملا من أجل كتبه التي لا يمكن حصر عددها ولا يمكن أن تحويها مكتبة، وعلاوة على ذلك لا يعترف هذا الجيل إلا بقراءة أمهات الكتب؛ فالكتب صغيرة الحجم قليلة المعرفة، لذلك كان أحمد بهجت نَهِمًا في قراءة أمهات الكتب، ولعل ذلك يبدو جليًا في أغلب مؤلفاته، التي يعد بعضها سَيرًا على درب الأوّلين ممن جعلوا الكتابة فنًا أمثال الجاحظ والقزويني والمقريزي وغيرهم ومَن سار على دربهم.

لكن أهم ما ميَّز أحمد بهجت هو أنه جعل الكتابة في السير الدينية فنًا لا وعظًا، فقد استخدم حسه الفني، وقدراته الدرامية ومهاراته الصحفية في جعل كتب السِّيَر تدخل القلوب وتنير العقول ولا يَمَلّها أحد.

«٣»

هـو صـوفيٌّ الهـوى، لكنـه يملـك عـينَ سـاخر، وقلـبَ عاشـق، وعقـلَ فيلسـوف، وقلـمَ مـؤرخ، وذكاءَ فنـان، وفطنـةَ عـالم، ودأبَ طالـب علـم.

لـذا أهـم مـا يميـز أعمالـه أنهـا ذات شـخصية واحـدة وإن تنوعـت، ومؤلفاتـه بمثابـة كتلـة واحـدة نزلـت لتسـد فراغًـا في المكتبـة العربيـة، ورغـم ذلـك لم يـدَّعِ علـمًا أو عبقريـة، لكـن المدهـش أن صاحـب الموهبـة الكـبرى في كتابـة سِـيَر الأنبيـاء هـو نفسـه كاتـب السـيناريو لفيلـم «أيـام السـادات»، ورغـم النجـاح السـاحق للفيلـم فإنـه لم يفكـر في تكـرار التجربـة، ولم يكتـب طـوال حياتـه سـوى هـذا الفيلـم، ربمـا اعتبرهـا هوايـة لا يريـد أن يتكسـب منهـا فتصبح «غوايـة»، وهـو نفـس مـا فعلـه قبـل قرابـة نصـف قـرن مـن كتابتـه لهـذا الفيلـم، فقـد كان يكتـب واحـدًا مـن أشـهر البرامـج في تاريـخ الإذاعـة المصريـة وهـو برنامـج «كلمتـين وبـس» الـذي كان يقدمـه الراحـل الرائـع فـؤاد المهنـدس، لكـن أيضًـا لم يكـرر التجربـة!

وهكـذا ظـل طـوال حياتـه لا يكـرر نفسـه منـذ عمـل صحفيًـا في مؤسسـة «أخبـار اليـوم» عـام ١٩٥٥ ثـم في مجلـة «صبـاح الخـير» عـام ١٩٥٧، ثـم انتقـل عـام ١٩٥٨ للعمـل بصحيفـة «الأهـرام» بعـد أن تـولى محمـد حسـنين هيـكل رئاسـة تحريرهـا، وفي ١٩٧٦ تـولى رئاسـة تحريـر مجلـة «الإذاعـة والتليفزيـون»، ثـم تركهـا وعمـل نائبًـا لرئيـس تحريـر «الأهـرام»، وبـدأ كتابـة عمـوده اليومـي «صنـدوق الدنيـا» الـذي لم يتوقـف عـن كتابتـه حتـى توقـف قلبـه في ١١ ديسـمبر مـن عـام ٢٠١١، لكنـه لم يحصـل عـلى نصـف مـا يسـتحق

مـن الاهتـمام، لدرجـة أن البعـض يخلـط بينـه وبـين رجـل الأعـمال الـذي يحمـل نفـس الاسـم، ليظـل أحمـد بهجـت مظلومًـا في حياتـه وبعـد رحيلـه.

هذا أو الطوفان

«١»

دخل علَى المنصور وفد من وفود الأقاليم، ووقف خطباء بعض الوفود يدبِّجون تحيَّات يُزْجُونها إلى المنصور، وبينما كان أحدهم يتكلم ويسرف على نفسه في المديح إذ شقّ الصفوف غلام من وفد آخر لم يأت دوره في الحديث، وصاح: «كلاَّ يا منصور.. إنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا، ووالله إن الناس ليستعْدُون عليك سهام القدر ودعاء السحر، ويسألون الله في حياء قائلين: يا ربنا، لماذا خلقت المنصور؟ وإذا كان لا بد أن تخلقه، فلماذا رزقتنا به؟»!

وانبهر المنصور، وفاح البِشْرُ في وجهه، وسأل الغلام قائلا: «مَن الوليّ الذي يحكمكم.. فوالله إنك لحسنة من حسناته، ولولا أنه يُحسن تأديبكم لما وجدناك هكذا شجاعًا؟!».

الغلام قال الحقيقة، وعلا صوته، ولم يخشَ سوط الملك، ولم يكن طامعًا في ذهبه، وهكذا كان أيضًا خالد الذِّكر المفكر خالد محمد خالد، فلم يكن طامعًا في سلطة، أو راغبًا في نفوذ، أو باحثًا عن شهرة، أو لاهثًا خلف المال، لذلك كان يقول ما يعتقد أنه الحق، لكنه لم يفرض ما يقوله على أحد، ولم يدَّعِ أن ما يقوله هو الحق المطلق.

كان محبًّا للحق، ولو كان مع غيره، وكان عاشقًا للحقيقة وباحثًا عنها، ولاهثًا خلفها، ومضحيًا من أجلها، وقائدِا من

قادتها، وفارسًا من فرسانها، وقادرًا على تحمل تبعات كشفها!

فالحقيقة على قدر صدقها، على قدر صعوبة الاعتراف بها وتحمُّل عواقبها، وكتاباته كان فتحًا جديدًا ومختلفًا، فهو يؤمن بأنه من دون شجاعة لا توجد حقيقة، ومن دون حقيقة لا توجد فضيلة، لذلك حين أهدى كتابه «هذا أو الطوفان» قال «إلى الذين يحبون الحقيقة، وأيضا الذين يكرهونها، لأن الحقيقة لا تحمل ضِغنًا لأحد».

كان خالد يبحث في كتب التراث والسِّيَر والتاريخ عن وقائع مغايرة لما نعرفه، وعن رؤية مختلفة لما اعتدنا سماعه، ولم يكن ناقلا للأفكار بل كان صاحب مدرسة فكرية مستقلة ومستقيمة، تقرأ وتهضم وتحلل وتفسر، ثم تستخلص رؤية جديدة بعد قراءة عميقة.

لذلك لم يكن يجلس للكتابة إلا إذا استشعر الحاجة الملحّة إلى ذلك وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أي مكان وفي أي ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت إلى ما حوله أو ينشغل به، وقد تمضي من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد في نفسه ما يبعث على الكتابة.

«٢»

وفي عام ١٩٥٠ أصدر المفكر خالد محمد خالد كتابه «من هنا نبدأ» فتمتْ مصادرته بعد بلاغ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر!

وجاء في عريضة الاتهام أن المؤلف تعدّى على الدين الإسلامي، وصوّر الحكومة الدينية بخصائص تبعث في النفوس محاربة هذا

النوع من الحكم، وقال إن القرآن والسُّنة فيهما من الغموض والاحتمالات ما يجعلهما غير صالحَين لأن يكونا أساسًا صالحًا للحكومة.

هنا دخل الشيخ محمد الغزالي المعركة، ولكن بسموّ يليق بمكانه ومكانته، فقرر أن يرد على ما كتبه الأستاذ خالد ويفنِّد كلامه، ولكن في كتاب أيضًا أطلق عليه «من هنا نعلم»، ولكن المدهش أنه بدأ كتابه بالدفاع عن خالد محمد خالد قائلا: «قد تحدث الناس أن الأزهر سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وأنا أرى أن الأزهر يكيل بكيلين، فهل هو يحاسب على الخطأ العلمي أم على الخطيئة النفسية كذلك؟!».

إن الشيخ الغزالي كان واعيًا أن مواجهة الرأي يجب أن تكون بالرأي لا بالمصادرة والمنع والتخويف والتسخيف لمن يريد إصلاحًا حقيقيًّا، لا البحث عن بطولة زائفة!

ما فعله الغزالي كان سببا في مراجعة المفكر الكبير لأفكاره، بل والتراجع عن بعضها في كتاب آخر هو «الإسلام دين ودولة».

وبغضّ النظر عن رؤية هذا أو ذاك، فإن ما يعنينا هنا ليست المعركة ذاتها ولا حتى نتائجها، فالمعارك الفكرية ليس فيها فائز وخاسر -مثل كرة القدم- وإنما هي مناقشة حرة هدفها الوصول إلى الحقيقة، والتعرف على رؤى مختلفة، ومواجهة الحُجة بالحُجة، لا بالضرب أو بالسجن أو بالمصادرة.

لم يحاول الغزالي تشويه خالد رغم أنه كان بإمكانه أن يُقيم الدنيا ولا يُقعدها، بل قال في مقدمة كتابه: أحب أن أذكر أني صديق للشيخ خالد محمد خالد منذ سنين، ولكن ابن القيم لما رأى عِوجًا في كلام شيخ الإسلام إسماعيل الهروي، وكان صديقًا له قال «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحبّ إلينا منه».

إنها معارك لوجه الحق أيًّا كان صاحبه.

لكن هناك دائمًا مَن يفسدون كل شيء في كل زمان، ففي الوقت الذي كانت فيه معركة خالد والغزالي تدور في فلك فكري راقٍ، تبرع بعض المشايخ بالذهاب إلى المحكمة لمحاكمة الكاتب والكتاب، لكن المستشار محمد فتحي نجيب أصدر حكمه بأن المؤلف لم يخرج في ما كتب عن حد البحث العلمي والفلسفي، وإذا صحّ أنه أخطأ في شيء مما كتب فإنّ الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء، وتعمُّد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر، ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق المؤلف فلا جريمة ولا عقاب!

«٣»

لكن قبل ثلاثين عامًا نشرت «الوقائع المصرية» قرارًا جاء فيه: «نظرا لما تنشره الصحف من المقالات التي تُخلّ بسلطة الحكومة، والتي من شأنها الإغراء على إحداث إضرابات، ستكون الرقابة سابقة للنشر ابتداء من ٦ مارس»، ولذلك ظلت الصحف لفترة تصدر بها مساحات بيضاء، كان بها موضوعات ألغاها الرقيب!

في هذا التوقيت دبَّت بذور الخلاف داخل الحركة الوطنية، ودارت مشادة كلامية في باريس بين الزعيم سعد زغلول ورفاق ثورة ١٩، وعلى رأسهم عبد العزيز فهمي لاختلافهم حول المشروع الذي طرحه ملنر، ووصل الخلاف إلى درجة جعلت سعد يرى أن مَن يوافق على هذا المشروع الذي لا يمنح مصر استقلالها كاملا خائن للأمانة، وحينها رد عليه عبد العزيز فهمي قائلا له: «يا

ريس.. لست أنت الوطني الوحيد الذي أنجبته مصر»!

في هذا التوقيت وتحديدًا في السابع والعشرين من رمضان عام ١٩٢٠ في قرية «العدوة» إحدى قرى محافظة الشرقية، وُلد المفكر خالد محمد خالد.

وحين أتمّ الخامسة من عمره التحق بكُتاب القرية، ثم التحق بالأزهر الشريف، وأتم حفظ القرآن كاملا في خمسة أشهر فقط، وظل يدرس على يد أعلام مشايخ الأزهر طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج في كلية الشريعة، ثم عمل بالتدريس لعدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، ثم تنقل بين عدة وظائف حتى قرر الخروج الاختياري إلى المعاش عام ١٩٧٦.

وآثر خالد أن تبقى حياته بعيدة عن الأضواء والمناصب والصراعات فرفض عروضًا كثيرة للعمل خارج مصر، ورفض أيضًا أن يتولى أي منصب عُرض عليه في عهدَي عبد الناصر والسادات، بل إنه واجه عبد الناصر في عنفوانه في قضايا الحريات، لكنه ظل طوال حياته زاهدًا متصوفًا قانعًا محبًّا للمعرفة ومشغولا بالآخرة ومؤثّرا في الدنيا.

كاتب يزعج السلطات

«١»

نادرًا ما يظهر بيننا مثيل له.

فهو ظاهرة لا تظهر كثيرًا، رجل لديه معرفة حقيقية، وعلم واسع، وذكاء حاد، ورؤية ثاقبة، وهدف واضح، وقدرات خاصة، وبصيرة.

رجل عظيم بحق، لكننا لا نصدق أن عظيمًا يعيش بيننا إلا بعد رحيله، ولا نستطيع أن نعترف بتفرده إلا بعد أن يذهب إلى الدار الآخرة، ولا نقْدُره حق قدره إلا بعد أن يسكن قبره.

عبد الوهاب المسيري كان عظيمًا في علمه وعمله وتواضعه ودأبه وفكره ونضاله وثباته على مبادئه، ويكفيه أنه عالم واجه سلطانًا جائرًا وقال له «كفاية»!

فقد شارك في تأسيس حركة «كفاية» لنتعلم أن العالم والمفكر والفيلسوف ليس شرطًا أن يكون مُحلِّقًا خارج العالم، بل ينبغي عليه أن يكون منخرطًا فيه، وعائشًا على الأرض بين البسطاء ووسط معاناة البشر، فالعالِم عندنا يفضل أن يُحلق بعيدًا بعلمه حتى لا يتعرض لبطش السلطة وينتهي مشروعه، لكن عبد الوهاب لم يخشَ بطش سلطة، ولم يبحث عن مغانمها، ولم يشغله ذهبها، فكان يجاهر بما يعتقد أنه الحق، ولم يوازن ولم يوارب الباب المؤدي إلى السلطة.

ففي عام ١٩٧١ حينما بدأت مظاهرات الطلبة ضد حالة

اللا سلم واللا حرب اشترك المسيري في حملة جمع التوقيعات تأييدًا للطلبة، وحينما كتب الدكتور فؤاد زكريا بيانه الشهير الذي وقَّع عليه عدد من كبار مثقفي مصر كان المسيري من أوائل الموقِّعين، وقد ظن رئيس الجامعة آنذاك أنه المسؤول عن البيان فاستدعاه إلى مكتبه، وأخذ يعنفه لأنه تسبب في إغلاق الجامعة، فجاء رده حاسمًا قاطعًا: «يا دكتور لا فائدة من جامعة مفتوحة في بلد محتل».

هذا هو الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي خسرناه حين رحل قبل قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بثلاث سنوات، رغم أنه كان محرضًا عليها، وداعمًا لها، وداعيًا إليها، كنا نريد عالمًا نسأله، ومفكرًا نستند إلى آرائه، لكنه ترك لنا إرثًا ضخمًا من أعماله الصالحة.

«٢»

المسيري ثوريّ الهوى، فحين أتم عبد الوهاب عامه السادس عشر، وقرأ كتاب مادة الفلسفة بدأ يساوره الشك، وقرر أن يتوقف عن الصلاة والصوم حتى يجد إجابة شافية عن أسئلته الشائكة عن أصل الشر في العالم والحكمة من وجوده، وأصل الكون!

وتلقى أفراد أسرته الخبر بشيء من عدم التصديق في البداية، لكنهم كانوا قد تعودوا منه على مثل هذه التحولات، فقبل عامين من هذه الواقعة انضم إلى جمعية الإخوان المسلمين، وكان يقضي وقتًا طويلا من الليل في قراءة القرآن مع أحد الخدم!

كان هـذا هـو أول عـام يـدرس فيـه مـادة الفلسـفة، وقـد خلبـت هـذا المـادة لُبَّـه تمامًـا، فقـد كان يقـضي سـاعات طويلـة في قـراءة الكتـاب المقـرر -عندمـا كان الكتـاب المقـرر يسـتحق القـراءة- وقـد سـاعده هـذا عـلى تنويـع أسـئلته وتعميقهـا وصياغتهـا، لكنـه لم يجـد لـدى أفـراد أسرتـه إجابـة عـن أسـئلته، فقـد كانـت أسرة محافظـة تصلي وتصـوم دون أن تبحـث عـن الحكمـة مـما تفعلـه، فاتجـه عبـد الوهـاب إلى أسـتاذ اللغـة العربيـة في المدرسـة لكنـه لم يجـد لديـه إجابـة تُوقِـف سـيل الأسـئلة التـي كانـت تطـارده.

وتخـرَّج عبـد الوهـاب في المدرسـة الثانويـة، وانطلـق بأسـئلته إلى الجامعـة حيـث التحـق بكليـة الآداب قسـم اللغـة الإنجليزيـة، وهنـاك كان لا بـد أن يمـلأ هـذا الفـراغ في نفسـه، فاتجه إلى الماركسـية، وكان اهتمامـه بهـا فكريًّـا فقـط إلى أن التقـى أحـد أعضـاء منظمـة «حدتـو»، الـذي جنَّـده، وصـار عضـوًا في الحـزب عـام ١٩٥٤، وفوُجـئ بتصعيـده في الحـزب لمعرفتـه باللغـة الإنجليزيـة، والمصـادر الأوليـة للفكـر الماركـسي، والمدهـش أن الشـخص الوحيـد الـذي اعـترض عـلى تصعيـده هـو نفسـه!

فقـد قـال لزعـماء التنظيـم: «إنـه لا يجـب تصعيـدي بسـبب خلفيتـي البرجوازيـة، باعتبـار أن والـدي تاجـرًا كبـيرًا، ولا بـد مـن اختبـاري للتأكـد مـن نقـائي الأيديولوجـي»!، ومـع ذلـك اسـتمروا في تصعيـده حتـى صـار مسـؤولا عـن خليـة شـيوعية!

إيمـان المسـيري بمـا يفعلـه جعلـه يثـور عـلى خطيبتـه في أثنـاء سـيرهما عـلى كورنيـش النيـل، فقـد رأت شـحاذًا وأرادت أن تعطيـه صدقـة، لكـن المسـيري نهرهـا وغضـب منهـا، وقـال لهـا محتـدًّا: «دعيـه حتـى يشـعر بالظلـم فيثـور»!

لكـن مـرت الأيـام، وأدرك الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري أنـه

يجب الفصل بين الثورة العامة والبؤس الشخصي الذي لا بد أن تساعد صاحبه.

المدهش أن الدكتور المسيري عاش حياته كلها مضطهَدًا رغم تعدد الأسباب؛ فقد قيل عنه إنه شيوعي، ورأسمالي، وإسلامي في ذات الوقت، مما جعله محكومًا عليه بالهلاك بغض النظر عن الأيديولوجية الحاكمة!

«٣»

في عام ١٩٦٣ وصل إلى أمريكا، يقول: وبمجرد وصولي إلى الجامعة عقدوا للطلبة الدراسين امتحانًا تكون فيه الإجابة إما بـ«نعم» وإما بـ«لا» لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي، فقضيتُ وقتًا طويلا في تأمل الأسئلة، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية ليست بنعم أو لا، وإنما تقع بينهما وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها، وقد تقرر بناء على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق بالدراسات العليا، ولكنني أخبرتهم أن الخلل ليس فيّ وإنما في الامتحان، فهو سخيف ولا يقيس قدرات الطالب الحقيقية، وأكدت لهم أن أدائي سيكون مختلفا تمامًا إذا ما وضعوا لي امتحانًا آخر بنفس الطريقة، وبالفعل قرروا أن يجرّبوا معي مرة أخرى فحصلتُ على أعلى درجة بين المتقدمين وكانت هذه هي أول مواجهة بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديتها وخيلائها.

المسيري كان يريد أن يثبت لواضعي الامتحان أن لديهم خللا في التقييم، وأن معاييرهم قاصرة، ويسهل التحايل عليها، والمرور

منها، فهو يدرك أن هناك «حقائق كاذبة» بمعنى أنها حقائق غير مزيفة لكنها ليست كاملة، فالحقيقة الكاذبة هي حقيقة جزئية، ومن ثم يمكن توظيفها لتبرير أي سلوك مهما كان ظالمًا.

من هذه الفكرة انطلقت رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية، فهو يبحث عن الإجابة الكاملة، والحقيقة غير الملفَّقة، ولا يخشى من طرح الأسئلة، ولا يملّ من البحث عن الأجوبة، وهذا ما فعله في موسوعته الأهم عن «اليهود واليهودية والصهيونية» التي حاول أن يكشف فيها تلك «الحقائق الكاذبة»، وقد ظل ٣٤ عامًا يجهّز موسوعته الكبرى منذ أن بدأ في كتابتها عام ١٩٦٤ حتى سلّمها للناشر عام ١٩٩٨، وحين صدر أول أجزاء الموسوعة في عام ٧٥ لم يلقَ الاحتفاء الذي يليق بالجهد المبذول فيه، لأن النظام الحاكم آنذاك كان قد بدأ طريقه نحو تطبيع العلاقات، وهذا النوع من الكتابات يزعج السلطات!

٣٠ عامًا من العزلة

«١»

هـو عـالم أكـثر مـن كونـه كاتبًـا، ومفكـر أكـثر منـه باحثًـا، لكـن مؤلفاتـه وحدهـا جعلتـه واحـدًا مـن أوليـاء الكتابـة الصالحـين.

إنـه الدكتـور جـمال حمـدان صاحـب ملحمـة «شـخصية مـصر»، و«اليهـود أنثربولوجيًـا»، و«اسـتراتيجية الاسـتعمار والتحريـر»، و«٦ أكتوبـر في الاسـتراتيجية العالميـة»، وغيرهـا مـن المؤلفـات التـي تُـعَّ مراجـع مهمـة وفـذَّة.

لكـن رغـم كـثرة مؤلفاتـه وأهميتهـا فإنـه لم يتكسـب منهـا، فقـد عـاش زاهـدًا، يكفيـه كـوب لـبن وكـوب زبـادى وكـسرة خبـز، ويجلـس في الصيـف مرتديًـا «بنطلـون وفانلـة»، وفي الشـتاء يرتـدى «روب» قديمًـا أحمـر اللـون، فـوق البيجامـة، وبيتـه لا يوجـد بـه قطـع أثـاث إلا في أضيـق الحـدود، فالصالـون بسـيط والسـتائر باليـة، والأرضيـة مـن الخشـب، والحوائـط معلقـة عليهـا ورقـة لـ«مـصر للطـيران» ومذيـاع أثـري، ومجموعـة مـن الكتـب -التـي توجـد في سـحارة، وليسـت مكتبـة- والصحـف التـي يقـوم بقراءتهـا بشـكل منتظـم.

لكـن رغـم هـذه الحيـاة التـي يصعـب تصويرهـا وتصوّرهـا فـإن جـمال لم يلهـث خلـف أضـواء الشـهرة، بحثًـا عـن المـال، ولم يتسـلل دخـول التاريـخ مـن الأبـواب الخلفيـة، ولم يحـاول التسـويق لنفسـه مـن خـلال وسـائل الإعـلام، ولم يكـن يقبـل المسـاعدة مـن أحـد أيًـا كانـت درجـة حبـه وتقديـره لـه، لذلـك لم يـتردد أن يقطـع علاقتـه

بالكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، الذي كان واحدًا من أقرب الناس إلى قلبه، عندما كتب يطالب المسؤولين عن جامعة القاهرة بإعطائه مقابلا ماديا محترمًا يكفل له حياة كريمة، وعندما أرسل إليه الأستاذ هيكل التليفزيون الفرنسي لعمل لقاء معه بمقابل مادي كبير يصل إلى آلاف الدولارات رفض عمل اللقاء لشعوره أنه نوع من المساعدة من هيكل له بطريقة غير مباشرة.

وحين ذهب إليه الأستاذ هيكل وطرق باب بيته دون ميعاد سابق، لم يفتح له الباب، وبعدها أرسل إليه الأستاذ برقية جاء فيها: «لم أتجاسر هذه المرة أن أطرق بابك على غير موعد، وهكذا إني أكتب إليك لأقول إننا عدنا إلى القاهرة بعد غياب أسابيع، وكما اتفقنا قبل أن أسافر فإني أترك لك اختيار الوقت الذي تراه مناسبًا لكي نلتقي مرة أخرى. ولست أعرف المواعيد المناسبة لك في الأسبوع القادم الذي يبدأ من السبت الأول من يونيو، لكنه سوف يسعدني إلى أبعد حد أن أسمع منك، ومع التحية أرجوك أن تقبل صادق الود والتقدير».

«٢»

قليلون مَن اخترقوا حاجز صمته، وعبروا باب شقته، ورأوه في سنوات عزلته، وجلسوا في صحبته، وتحدثوا معه خلال ثلاثين عامًا قضاها بمفرده.

لذا الكتابة عنه مغامرة، وقراءة كتبه تحتاج إلى مثابرة، والجمع بينهما يحتاج إلى عُزلة تجلس فيها وحيدًا تتأمل وتفكر، وتفسر لتكتشف شخصية الرجل الذي كشف لنا «شخصية

مصر» ذلك الكتاب الذي ارتبط باسمه.

إنه العالم والمفكر جمال حمدان الذي وُلد في ليلة النصف من شعبان يوم الأربعاء ٤ من فبراير عام ١٩٢٨.

هنا في قرية ناي، إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية، وضعت زوجة الأستاذ صالح مدرِّس اللغة العربية مولودها الرابع جلال الذي كانت تناديه أسرته باسم «لولو» على سبيل التدليل، وكانت تطلق عليه جارته الإيطالية اسم «جمال»، وحين ذهب لتحرير استمارة امتحان الشهادة الابتدائية اكتشف أن مسؤول السجل المدني أخطأ وكتب «جمال محمود صالح» بدلا من «جلال محمود صالح» وعلم والده بما حدث وحاول تغيير اسم ابنه؛ نظرًا إلى أن لديه ابن آخر يدعى «جمال الدين»، لكن جهوده باءت بالفشل ليصبح لديه «جمال الدين وجمال».

لكن جمال واحد فقط هو الذي سيخلّد اسم عائلته إلى الأبد، لكنه سيحيا وحيدًا في مجتمع لا يقبل العباقرة ولا يُفسح لهم المجال، لذلك قرر منذ البداية أن لا يكون شبيهًا بأحد، وكتب على حياته بخط عريض «ممنوع الاقتراب أو التصوير»، وكان دقيقًا حين شخَّص مشكلة الإنسان المصري بقوله: روح السماحة والدماثة، تلك المقولة واحد من أخطر عيوب مصر، وهي أنها تسمح للرجل العادي المتوسط، بل للرجل الصغير، بأكثر مما ينبغي وتفسح له مكانًا أكبر مما يستحق، وفي الوقت نفسه تضيق بالرجل الممتاز، إذا لم يكن في توسطها ووسطيتها، وأفضل مكان له خارجها، فشرط النجاح في مصر أن يكون اتباعًا لا إبداعيًا، وواليًا لا معارضًا.

«٣»

في الثالثة والنصف من عصر يوم السبت الموافق ١٧ أبريل عام ١٩٩٣ شعر سكان العقار ٢٥ بشارع «أمين بك الرافعي» في الدقي برائحة «حريق» هائل تخرج من الشقة رقم واحد، فسارع أحد الجيران نحو عساكر الأمن الموجودين أمام البيت المجاور رقم ٢٣ الذي كان يسكن فيه فاروق سيف النصر وزير العدل آنذاك، وبالفعل جاء الحراس وكسروا باب البيت -الذي لم يُفتح طوال ثلاثين عامًا إلا مرات معدودة وبمواعيد محددة وبطَرْقَات مميزة- بمساعدة بعض الأهالي ليجدوا هرم الجغرافيا الأكبر في تاريخ مصر الدكتور جمال حمدان وقد سقط على الأرض محروقًا!

بادر أحد الأشخاص بالاتصال بمطافئ وإسعاف الدقي ليبلغ عن احتراق رجل في شقته، وبعد دقائق معدودة حضرت المطافئ، ثم بعد نصف ساعة جاءت سيارة الإسعاف، وليتها ما جاءت، لأن السادة المسعفين بعد أن حملوا الجثة إلى خارج الشقة ألقوا بها على الأرض عندما تأكدوا أن الرجل قد مات وبالتالي خرج عن دائرة اهتماماتهم! وقالوا لجيرانه الذين ازدحم بهم مدخل العمارة: «اتصلوا بقسم الشرطة؛ هو المسؤول عن الموتى» وتركوا جثته على الأرض وذهبوا، ليعيش العالِم الكبير غريبًا -بل مُهانًا- في وطنه حيًّا وميتًا! ربما لو كان لاعبًا أو راقصة لقامت الدنيا لرحيله، لكن عمومًا «هيَّ دي مصر يا جمال»!

رحل جمال حمدان بعد أن قضى ثلاثين عامًا بمفرده دون أنيس أو جليس بعد أن قرر أن يعتزل النساء أيضًا؛ فلم يتزوج من

الإنسانة التي أحبها في بريطانيا وتُدعى «وليما» وظلت تلازمه في كل شيء طوال سنوات الجامعة وكانت تدرس علم المصريات بنفس الجامعة التي يدرس بها لكنها لم تتقبل فكرة أن تعيش معه في مصر فعاد وتركها -على حد تعبير أخيه الدكتور عبد الحميد حمدان- ودخل عزلته ولم يفكر في الخروج مرة أخرى لصخب الحياة، بل قال بوضوح في أحد حواراته: «لن أخرج حتى ينصلح حال المجتمع، ولا أعتقد أن هذا سيحدث»، ربما لم يكن الدكتور حمدان في حاجة إلى مجتمع لا يحتفي بالعباقرة، لكن المؤكد أن المجتمع كان في أشد الحاجة إليه ليهديه إلى الطريق الذي يعرف نهاياته بدقة.

رحل عبقري الزمان والمكان دون أي اهتمام من مسؤولي الدولة الذين ذهبوا في هذا اليوم إلى تركيا للقيام بواجب العزاء في رئيس وزرائها في الوقت الذي كان فيه عالمنا الجليل مُلقًى على الأرض ينتظر من يحمله إلى قبره، لتخرج جريدة «الأهرام» الغرَّاء في اليوم التالي تعلن الحداد ثلاثة أيام لا لوفاة واحد من أساطير العلم في مصر وإنما لوفاة سيادة رئيس وزراء تركيا، أما التليفزيون المصري الرائد فلم يذكر في نشرة السادسة ولا حتى التاسعة في نفس اليوم أو حتى في اليوم التالي خبر وفاته! في حين أنه في بلاد أخرى يقطع التليفزيون إرساله لمن أقل منه منزلة. ربما لو نحَّى هذا العالِم علمَه جانبًا وسخَّر كل جهوده واستثمر كل مواهبه في العلاقات العامة والدعاية لنفسه، كان له شأن آخر وعرفه جيرانه الذين يسكنون أمامه والذين حين سألتهم عنه قالوا بدهشة: «معقولة كان في عالم كبير ساكن قصادنا»!

مُلحد على سجادة الصلاة!

«١»

«إذا كان مصطفى محمود قد ألحد فهو يلحد على سجادة الصلاة»!

هكذا وصفه الشاعر كامل الشناوي، وأضاف: «كان يتصور أن العلم يمكن أن يجيب عن كل شيء، وعندما خاب ظنه مع العلم أخذ يبحث في الأديان بدءًا بالديانات السماوية وانتهاء بالأديان الأرضية ولم يجد في النهاية سوى القرآن الكريم».

قرأ الشناوي صديقه مصطفى من الداخل قبل أن تظهر هذه الحقيقة للعوام والعيان، فقد رحل الشناوي قبل سنوات من انتهاء رحلة مصطفى محمود من الشك إلى اليقين.

تلك الرحلة التي استمرت ثلاثين عامًا كاملة، قضاها في البحث عن الله! قرأ خلالها عن البوذية، والبراهمية، والزرادشتية، ومارس تصوف الهندوس، لكن رغم كل ذلك لم يُلحد بقدر ما كان يبحث عن إجابات جديدة لأسئلة قديمة، لم يكن راغبًا في أسئلة نمطية وإجابات مكررة.

كان مفكرًا بحق، ونحن لا نحتفي بالمفكرين، ولا نُنزلهم منازلهم، ولا نقتفي آثارهم، هو نموذج لم نعهده.

لم يكن تصنيفه سهلا بل كان عصيًّا على التصنيف، ونحن نعشق القوالب الثابتة، ولا نحب أن نرهق أنفسنا عناء التفكير في من هم خارج الإطار والنمط المتكرر، وهذه هي معضلة

مصطفى محمود الذي لم تكن هذه القوالب ترضيه أو تُلجمه أو تحدد مساره.

نحن اعتدنا على المفكر التليفزيوني، ذلك المفكر الذي لا نجد له أي إنتاج فكري سوى تفكيره أمام كاميرات التليفزيون، ولم يُضبط يومًا يفكر خارج الاستوديوهات!

لذلك عجزنا عن فهم الدكتور مصطفى محمود، الرجل الذي وهبَ حياته باحثًا حقيقيًا عن سر الحياة، وما بعد الموت، فصار من رجل ضلَّ طريقه إلى عالم يسير الناس خلفه.

وقد ظهر ذلك جليًا في برنامجه الأشهر «العلم والإيمان». في هذا البرنامج وجد مصطفى محمود ضالَّته في التواصل مع البسطاء، ووجد فيه البسطاء رجل العلم الذي يثبتهم على طريق الإيمان الذي يبحثون عنه.

المدهش أن هذا البرنامج الأشهَر في تاريخ التليفزيون المصري ما كان ليظهر لولا الصدفة!

فحين عرض مصطفى محمود الفكرة على مسؤولي التليفزيون تم رصد ميزانية محددة من أجل إنتاج كل حلقة وهي ثلاثون جنيهًا فقط لا غير! وبالتالي لم يكن ممكنًا خروج هذا البرنامج إلى النور، وتوقَّف المشروع قبل بدايته، وكاد ينتهي لولا أن أحد رجال الأعمال تحمَّس للفكرة وقرر أن يتبرع لإنتاجها!

وظهر البرنامج بموعده الثابت مساء الإثنين بموسيقى الناي الحزينة التي ما زالت عالقة في الآذان، وبصوره التي لم تغادر الأذهان، وبمعلوماته الفياضة التي ارتبطت وتربَّت عليها أجيال كثيرة، لكن بعد سنوات من النجاح الصاخب -وغير المعتاد- صدر القرار بوقف البرنامج بقرار من وزير الإعلام، وقيل إن السبب ضغوط من العدو الصهيوني، لكن ربما رأى النظام أن

شـعبية مصطفـى محمـود تمثـل خطـرًا عليـه ليـس لأنـه ينافسـه لكـن لأن النظـام لم يكـن راغبًـا في ظهـور زعامـات فكريـة تحـضّ النـاس عـلى التفكـير.

«٢»

كان يقـف طويـلا أمـام أجسـاد المـوتى داخـل المشرحـة، ويعشـق تشريـح الجثـث لدرجـة عجـز أقرانـه وأسـاتذته عـن فهمهـا!

فلـم يذهـب إلى كليـة الطـب طامعًـا في لقـب «الدكتـور فـلان» كسـائر أقرانـه، لكنـه حـين اختارهـا أراد أن يُـشرِّح النفـس البشريـة ليعلـم مـا تُخفيـه، ويمـارس هوايتـه التـي مارسـها مـذ كان طفـلا في بيـت أبيـه، وقـرر أن يُنشـئ داخـل المنـزل معمـلًا صغـيرًا يصنـع فيـه الصابـون والمبيـدات الحشريـة ليقتـل بهـا الحـشرات، ثـم يقـوم بتشريحهـا!

لم تكـن علامـات النبـوغ ظاهـرة لأسـاتذته قـدر مـا كانـت علامـات الاختـلاف والتفـرد بـارزة كالشـمس في وضـح النهـار، فلـم يكـن طالبـا عاديًـا -ونحـن نفضِّـل العاديـين- حتـى يسـهل عـلى الأسـاتذة تقييمـه وتقويمـه.

فقـد بـدأ حياتـه متفوقًـا في الدراسـة، حتـى ضربـه مـدرس اللغـة العربيـة، فغضـب وانقطـع عـن الدراسـة لمـدة ثـلاث سـنوات إلى أن انتقـل هـذا المـدرس إلى مدرسـة أخـرى فعـاد لمتابعـة الدراسـة.

وحـين مـرض والـده ثـم تـوفيِّ بعـد أن أصيـب بالشـلل، قـرر مصطفـى أن يحقـق حلـم والـده ويصبـح طبيبًـا، وأن يتخصَّـص في الأمـراض الصدريـة، فنجـح وتفـوق والتحـق بكليـة الطـب، وتخـرج فيهـا عـام ١٩٥٣، وعـاش في «ميـت الكرمـاء» بجـوار مسـجد

«المحطـة» الشـهير الـذي يعـد أحـد مـزارات الصوفيـة الشـهيرة في مـصر، مـما تـرك أثـره الواضـح عـلى أفـكاره وتوجهاتـه.

لكنـه بعـد سـبع سـنوات قـرر أن يتفـرغ للكتابـة وشـق لـه طريقًـا أَعْجَـزَ مَـن يـأتي بعـده عـن اسـتكماله، فألَّـفَ ٨٩ كتابًـا منهـا الكتـب العلميـة، والدينيـة، والفلسـفية، والسياسـية، والاجتماعيـة، إضافـة إلى المسرحيـات، وأدب الرحـلات، وتميـز أسـلوبه بالجاذبيـة مـع العمـق والبسـاطة.

«٣»

حـين عـرض عليـه الرئيـس السـادات أن يكـون وزيـرًا رفـض قائـلًا: «أنـا فشـلت فى إدارة أصغـر مؤسسـة وهـي الأسرة.. فأنـا مُطلـق.. فكيـف بي أديـر وزارة كاملـة؟!».

كان صادقًـا مـع نفسـه، ويـدرك مَواطِـن قوتـه، ولا يخجـل مـن الاعـتراف بمَواطِـن ضعفـه، فقـد تـزوج مرتـين، الأولى انتهـت بعـد ١٢ عامًـا، والثانيـة لم تسـتمر سـوى أربـع سـنوات، وفي الحالتـين رأى أنـه لم يُحسـن إدارة مؤسسـة الـزواج.

لم يُعلـن يومًـا أنـه يملـك الحـق المطلـق، ولم يـدَّعِ أنـه كان عـلى صـواب طـوال الوقـت، بـل ظـل طـوال حياتـه يعـترف بأخطائـه، ويسـجلها في كتاباتـه كى يتطهـر منهـا، وكى لا يكررهـا أحـد بعـده، لـذا كان يقـول: «لسـت في موضـع اتهـام، وأن اعـترافي بـأني كنـت عـلى غـير صـواب في بعـض مراحـل حيـاتي هـو ضرب مـن ضروب الشـجاعة والقـدرة عـلى نقـد الـذات، وهـذا شيء يفتقـر إليـه الكثـيرون ممـن يصابـون بالجمـود والغـرور».

المشـكلة لم تكـن في شـخص مصطفـى محمـود بـل كانـت أغلـب الأحيـان عنـد مريديـه وخصومـه، فالبعـض حمَّلـه أكـثر مـما يحتمـل،

أحيانًا بالتهويل في تقديره -لا أقول تقديسه- والبعض الآخر بالتهوين من قدره، والتشكيك في رجاحة عقله، ومحاولة إلصاق كل التهم به، لكنه في الحالتين خرج فائزًا، فقد ظل الكاتب اللغز الذي يبحث الجميع عن حل قاطع مانع يصلون به إلى حقيقة هذا الرجل الذي شغل الدنيا بأفكاره.

فهو لم يملك سوى أفكاره، وشهرته كلها حققها بفضل هذه الأفكار التي بعضها كان صوابا، وبعضها جانبه فيها الصواب، لذا فهو مُتهم دائمًا بالاختلاف، ومضبوط بأداة الجريمة وهي القلم، وعليه شهود جاهزون وهم خصومه في الأفكار.

لو لم يجد مصطفى محمود شيئًا يبحث عنه ربما مات كمدًا، لذا كان يردد دائمًا: «أريد لحظة انفعال.. لحظة حب.. لحظة دهشة.. لحظة اكتشاف.. لحظة معرفة فمن دون هذه اللحظات لا أجد لحياتي معنى، فحياتي من أجل أكل العيش لا معنى لها».

أولياء بلا أضرحة

«إننـي ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأسـتمع.. وأناقش.. وأتسـاءل.. وأشـكّ.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

محمود عوض

الحفّار!

«١»

وصل صالح إلى مقهى «بترو» في ذلك اليوم مبكرًا، فوجد أمامه نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأمامهما البحر بكل امتداده، والكورنيش خاليًا من المارّة ومن السيارات في ذلك الوقت من الصباح، وفي المقهى عدد من الرواد لا يزيد على أصابع اليدين، وعندما اقترب منهما كانا غير منتبهين وكل منهما يضع تحت يده فوق المائدة عددًا من مجلة «الكواكب» التي كانت قد صدرت في هذا اليوم.

ألقى صالح بالتحية، فجاءه الرد فاترًا، وجلس إليهما فإذا بالفتور يسرى إليه، ظن أن ثمة ما يشغلهما، فهمّ بالانصراف، فإذا بتوفيق الحكيم يهتف به غاضبًا: «إيه اللي انت عملته ده يا أستاذ؟!».

بَدَت كل علامات الدهشة على وجه صالح قبل أن يقول مخاطبًا الحكيم: «هو أنا عملت إيه يا أستاذ؟!».

فصاح الحكيم قائلا: «ليه سمّيت اللي انت كاتبه ده كاريوكا؟!».

فرد صالح مقاطعًا وهو مذهول: «لأنها تحية يا توفيق بك».

فإذا بنجيب محفوظ يقاطعه والأسى يقطر من بين شفتيه: «طب ما تسميها قصة راقصة يا أخى»!

نظر إليهما صالح وهو لا يعي ما يسمع، وانهال عليه

التقريـع مـن كليهـما، لكنـه أنصـت في إجـلال ليتعلـم درس عمـره مـن العـم نجيـب محفـوظ الـذي مـال نحـوه وقـال لـه: اللـي أنـت كاتبـه ده أدب.. أنـا لـو سـمّيت «اللـص والـكلاب» محمـود سـليمان -الـذي أطلقـوا عليـه لقـب السـفاح في السـتينيات- ماكانتـش بقـت روايـة!

ثـم أشـعل العـم نجيـب سـيجارة حـان موعدهـا، وقـال في ابتسـامة حانيـة: «وبرضـه كانـت حتبقـى كاريـوكا، مـش حـد تـاني»!

لقـد منحـه سر الصنعـة، وتعلـم صالـح مـرسي الـدرس الأهـم في عمـره، وربمـا كان ذلـك اليـوم هـو مفـترق الطـرق الـذي غـيّر مجـرى حياتـه لينتقـل مـن قـاصٍّ جيـد إلى صانـع أدب جديـد.

كانـت مذكـرات كاريـوكا هـي البدايـة، لكـن صالـح مـرسي قـاوم كتابتهـا كثـيراً، فقـد كانـت المـرة الأولى في نهايـة الخمسـينيات حـين ذهـب إلى كاريـوكا وقـال لهـا: «نفـسي أكتبـك» فوافقـت، وهـرب ونـسيَ أو تنـاسى، ثـم عـاد وكـرر الطلـب بعـد تسـع سـنوات، فوافقـت ثـم اختفـى للمـرة الثانيـة، لكنـه عـاد بعـد أسـابيع قليلـة ليبـدأ معهـا تسـجيل رحلـة حياتهـا في عشريـن سـاعة، لتُنـشر في مجلـة «الكواكـب» منـذ قرابـة نصـف قـرن، لكـن المدهـش أن هـذه المذكـرات لم تُنـشر في كتـاب، بـل إنهـا اختفـت!

نعـم، اختفـت، فحـين ذهبـتُ إلى دار الكتـب والوثائـق وجـدتُ أن الأعـداد التـي نُـشرت فيهـا المذكـرات في «الترميـم» -باسـتثناء أعـداد قليلـة- وبالتـالي لا يمكـن الاطـلاع عليهـا أو تصويرهـا، أمـا في مكتبـة الإسـكندرية فلـم أجـد سـوى سـت حلقـات فقـط، فاتجهـتُ إلى سـور الأزبكيـة وسـور السـيدة زينـب حتـى عـثرت عـلى أجـزاء مـن هنـا وأجـزاء مـن هنـاك، وبعـد رحلـة بحـث طويلـة وصلـت إلى المذكـرات وحصلـت عليهـا كاملـة بـكل مـا فيهـا مـن أسرار ومفاجـآت، وأعـدت

نشرها في جريدة «التحرير».

«٢»

تعلم صالح الدرس من نجيب محفوظ، لكن قبل سنوات كان قد تعلَّم درسًا آخر حين تعرف على يوسف إدريس!

فحين هبط صالح إلى القاهرة في العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٥ قادمًا من الإسكندرية لم يكن قد أتم عامه السادس والعشرين، ولم يكن يدري ماذا يفعل، فقد وُلد في مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية في فبراير عام ١٩٢٩، وعمل بحَّارًا، لكنه اكتشف أنه لم يعد من الممكن أن يستمر في عمله في البحر، وأدرك أنه كان يراقب الحياة من حوله كأنه يشاهد فيلمًا أو مسرحية، فقد كان يشاهد البحر لكنه لم يكن يومًا جزءا منه.

شخص واحد فقط كان قد تعرف عليه، وعرض عليه مساعدته، كان هذا الشخص هو الفذّ يوسف إدريس.

كان إدريس أول من قرأ لصالح قبل أن يحضر من الإسكندرية وأشاد به وقال له: قرأت «زقاق السيد البلطي»، و«الحياة تسير»، و«خمر وناس»، و«الأمواج»، وحين قرأتها تغيَّر رأيي فيك تمامًا، فأنت لست بكاتب قصة فقط، ولا أنت مُجيد فقط، ولكن مستواك غير عادي في الكتابة، أنت فنان.

كانت الخطابات المتبادَلة بين يوسف إدريس وصالح مرسي لها الأثر الأكبر في قراره بترك العمل في البحر، والالتحاق بالعمل في مهنة أخرى لكنها أيضًا متلاطمة الأمواج.

كانت كلمات يوسف إدريس بمثابة نقطة تحول كبيرة في حياة صالح مرسي؛ فقد جعلته أكثر ثقة بما يكتب، خصوصًا

أن إدريس كان حادًا في نقده، لاذعًا في رأيه، وبالتالي فشهادته وسام.

«٣»

وجد صالح مرسي نفسه في أدب الجاسوسية، فقد برع وتألق وبزغ نجمه في هذا النوع من الأدب الذي لم يكن معروفًا قبله، فهو الأب الشرعي لهذا النوع من الأدب الذي صار في ما بعد واحدًا من أكثر الأعمال جذبًا للقراء والمشاهدين!

فبعد أن كتب قصة حياة «كاريوكا» ومن بعدها ليلى مراد وجد أن عليه أن يتفرغ للأدب، ولكن يجب أن يبتكر نوعًا جديدًا لم يعهده القراء، فكتب قصته البديعة «الصعود إلى الهاوية» في نهاية السبعينيات، وفي مطلع الثمانينيات كتب رائعته «دموع في عيون وقحة»، وبعدها كتب «الحفّار»، و«رأفت الهجان» الذي يعد أشهر أعماله، ومن أشهر الأعمال في تاريخ الدراما التليفزيونية.

أهم ما ميَّز العم صالح مرسي أنه شق طريقًا لم تعرفه الكتابة في مصر من قبل، وسار فيه بمفرده ثم جاء الناس بعده، فصارت أعماله من كلاسيكيات الدراما وظلت من علامات شهر رمضان لسنوات طويلة، وفي ذات الوقت صارت لها مكانة أدبية رفيعة المستوى، لكن الأهم أن قصصه ليست من وحي خياله وإنما هي من وحي بطولات حقيقية وأبطال حقيقيين من لحم ودم، من بينهم جمعة الشوان أو أحمد الهوان البطل الذي هان على الجميع، وعاش زاهدًا يسكن في شقة متواضعة، لكنه لم يسأل الناس إلحافًا رغم مرضه وضعْف دخله، وعدم سؤال المسؤولين عنه، لكن «هيَّ دي مصر يا عبلة» مثلما قالها عمنا صالح مرسي!

الجبل

«١»

حين أُطلق الرصاص على جمال عبد الناصر في حادثة المنشية بالإسكندرية، استدعى علي أمين رئيس تحرير «أخبار اليوم» آنذاك، الصحفي الشاب فتحي غانم، وقال له: ألست قصَّاصًا؟

نريدك أن تذهب إلى بيت المتهم بالاعتداء على عبد الناصر في حي بولاق وتكتب لنا صورة قلمية لما تراه. وراح غانم ووصف ما شاهده ببساطة ووضوح وواقعية: «سُلَّم في بيت قديم متآكل، حجرة بها سرير فوقه مفرش كاروهات، مشنة عيش، ترابيزة خشب متواضعة، امرأة صغيرة السن تحمل طفلا رضيعا في عيونها ذهول وخوف شديدين، ومن حولها أعداد ضخمة من رجال الأمن».

هاجت الدنيا وماجت بعد أن نُشرت تلك الصورة القلمية في «أخبار اليوم» -على حد تعبير سيدة الكتابة سناء البيسي- لدرجة أن عبد الناصر أشار إلى أن ما كتبه ذلك الصحفي قد أثار التعاطف المبالَغ فيه مع المتهم!

المدهش أنه قبل ثلاثين عامًا وتحديدا عام ١٩٢٤ كانت الأجواء متشابهة إلى حد التطابق.

فقد أطلق طالب بكلية الطب النار على سعد زغلول في أثناء مروره في الإسكندرية، وكانت هذه الحادثة سببًا رئيسيًّا في تعلُّق الشعب الشديد بزعيم الأمة الذي شعروا أنهم كادوا

يخسرونـه بسـبب مختـلّ.

وفي نفـس اليـوم الـذي أُطلـق عليـه «يـوم الهـول» رحـل أحـد أعـلام الأدب، مصطفـى لطفـي المنفلوطـي.

وقبـل شـهور تـم إلغـاء الخلافـة الإسـلامية في تركيـا، وتحديـدًا في شـهر مـارس، وتمـت أول انتخابـات في ظـل دسـتور ١٩٢٣، وحصـل حـزب «الوفـد» عـلى الأغلبيـة البرلمانيـة وكذلـك في مجلـس الشـيوخ، وتشـكلت وزارة سـعد زغلـول.

في هــذه الأجـواء شـديدة السـخونة وُلـد صاحـب «السـاخن والبـارد» محمـد فتحـي غانـم يوسـف ديـاب.

«٢»

فتحـي غانـم كان جبـلا بحـق، فعـلى الرغـم مـن كـثرة مـا تعـرّض لـه مـن عسـف وقهـر وظلـم وغـبن، لم يفقـد ظلـه.

فـلا تندهـش عندمـا تعـرف أنـه تـم حـذف ٢٥٠ صفحـة مـن إحـدى رواياتـه، ومـن أخـرى ١٣٠ صفحـة، ومـن ثالثـة ٥٠ صفحـة، ومـن رابعـة ٣٠ صفحـة -مثلـما كشـف الناقـد شـعبان يوسـف- وهكـذا ظـل دائمًـا يتعـرض للاضطهـاد ومحـاولات الإبعـاد والتضييـق والمضايقـة، ربمـا لشـعور البعـض بخطـورة مـا يكتـب.

فحـين صـدرت روايتـه «الرجـل الـذي فقـد ظلـه» قيـل إن بطلهـا الحقيقـي الأسـتاذ محمـد التابعـي، بـل إن التابعـي ذاتـه اتصـل بـه عقـب صـدور الروايـة وقـال لـه: بعـض الأصدقـاء قالـوا لي إنـك كتبـت روايـة عنـي!

ونفـس الـشيء تكـرر في روايتـه «زينـب والعـرش» التـي تشـعر أن بطلهـا الحقيقـي هـو الأسـتاذ مصطفـى أمـين. وقيـل أيضًـا إن روايـة

«تلك الأيام» تعبّر عن شخصية الأستاذ هيكل. بل قيل إن رواية «الأفيال» هي تعبير عنه نفسه. أما الشخصية التي أوحت إليه برواية «حكاية تو» فهو اليساري المعروف شهدي عطية وما تعرض له في السجن، لذلك ظلت الرواية ممنوعة ١٣ عامًا دون إبداء أسباب!

لكن رغم هذا التماسّ الشديد بين أبطال رواياته ونجوم الصحافة وأعلامها فإن فتحي غانم كان دائمًا ينتصر للفن والأدب وإلا ما بقيت رواياته حيّة بيننا.

فقد ظل دائمًا يحتفظ بمساحة خاصة لنفسه ولأدبه، حيث يجلس منفردًا بالقارئ دون حسابات أو حواجز يرسم له الواقع كما يراه، ويحلله ويفسره ويعطيه رؤية كاملة ومكتملة لما يجرى حوله.

صورة قد لا ترضَى عنها السلطة، وقد تعاقبه بسببها، لكنه لم يكن مشغولا برضا السلطة أو سخطها، هو فقط يخاطب الناس، ويرى أن أي أدب صادق هو وثيقة تعبر عن المجتمع وتكشف خباياه، لذلك فأدب فتحي غانم من «لحم ودم»، فكل من كتب عنهم تشعر أنك تعرفهم، بل ربما لا تبذل جهدًا لتحدد مَن هم ومواقعهم، وربما لهذا السبب لم ينصفه أحد، ولم يحصل على ما يستحق وتعرَّض لكل محاولات التجاهل، لكنه رغم ذلك صنع مجده من أدبه رغم أنه تولى أعلى المناصب الصحفية سواء كرئيس تحرير أو رئيس مجلس إدارة لعدد من الصحف والمجلات منها «الجمهورية»، و«روزاليوسف»، و«صباح الخير»، علاوة على وكالة أنباء الشرق الأوسط.

«٣»

لم يكـن غانـم عـلى كـثرة المناصـب التـي تولاهـا معـبرًا عـن أحـد سـوى نفسـه، فلـم يكـن متحدثًـا عـن السـلطة، ولم يشـغل نفسـه بمعاداتهـا، لذلـك نجـا مـن الاعتقـال!

فـذات يـوم نـشرت جريـدة «الأهـرام» في أثنـاء ثـورة التصحيـح -كـما أطلـق عليهـا الرئيـس السـادات- تسـجيل مكالمـة هاتفيـة بـين عـلي صـبري أمـين اللجنـة المركزيـة للاتحـاد الاشـتراكي حينـذاك، ومحمـد فائـق وزيـر الإعـلام في ذلـك الوقـت، وكان هنـاك خـلاف مـع السـادات حـول الوحـدة مـع ليبيـا، وكان عـلي صـبري يقـول: الراجـل عايـز يعمـل إيـه؟ مافيـش حـد يكتـب في البلـد؟ فـردّ محمـد فائـق: نكلـم فتحـي نخليـه يكتـب؟ فأجابـه عـلي صـبري: هـو فتحـي غانـم ده بيعمـل حاجـة.. دا آخـر مَـن يعلـم في المسـائل دي.

لـولا هـذه الكلمـة التـي قيلـت بالصدفـة لأُلقـي فتحـي غانـم في غياهـب السـجون، رغـم أنـه كان رئيسًـا لمجلـس إدارة دار التحريـر -«الجمهوريـة» حينـذاك.

فتحـي غانـم واحـد مـن جيـل جبـار مـليء بجبابـرة الأدب والصحافـة، مـن نجيـب محفـوظ ويوسـف إدريـس إلى يوسـف السـباعى وإحسـان عبـد القـدوس، ومـن محمـد التابعـي وهيـكل إلى مصطفـى وعـلي أمـين، لكـن هـذا الجيـل كان يجمعـه شيء آخـر لم يكـن يدركـه فتحـي غانـم إلا حـين زار موسـكو بصحبـة خمسـة مـن كبـار مبدعـي مـصر آنـذاك ولاحظـوا حجـم الحفـاوة الشـديدة والاحـترام الرسـمي، كأنهـم رجـال دولـة في زيـارة رسـمية وليسـوا أدبـاء ومثقفـين.

شغلت هذه الزيارة بال فتحي غانم كثيرًا، وكان حريصًا على الاستفسار عنها من أركان السفارة المصرية في موسكو، وقد وجد الإجابة التي لم يكن ينتظرها، فقد قيل له: إن السوفييت تعاملوا معكم باعتباركم ضباطًا في المخابرات المصرية!

ويروي فتحي غانم هذه الواقعة ضاحكًا: «كنا سعد الدين وهبة، وكامل زهيرى، وحسن فؤاد، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وأنا. كانت بيننا اختلافات فكرية كثيرة، لكن شيئًا واحدًا فقط جمع بيننا، هو أننا كنا جميعًا طولا بعرض، وكل واحد يرتدي بدلة كاملة، ورابطة عنق فاخرة، ويضع على عينيه نظارة شمس سوداء من ماركة بيرسول. ولذلك كان من الطبيعي أن يتصور المسؤولون السوفييت أننا من رجال المخابرات، لأن صورة كل منهم لم تخرج وقتها عن الصورة النمطية لرجل المخابرات».

«٤»

المدهش أن أغلب أبطال روايات فتحي غانم أطلق عليهم نفس الاسم وهو «يوسف»، وقيلت أسباب كثيرة تفسر ذلك، بل إن فتحي غانم نفسه كان في كل مرة يفسر هذه الظاهرة بسبب مختلف!

فقيل إن السبب في ذلك هو تأثره بالمفكر الكبير توفيق الحكيم الذي كان أغلب أبطال رواياته يحملون نفس الاسم وهو «محسن»، وقيل إنه بسبب تأثره بقصة سيدنا يوسف، عليه السلام، وقال البعض لأن جده اسمه يوسف، وقيل أيضًا إنه كان له أخ توفي اسمه يوسف، وكان مرتبطًا به فقرر أن

يسمي كل مَن يحبهم من أبطال رواياته «يوسف»، وهناك من قال إن السبب في ذلك هو كسل الكاتب في البحث عن اسم جديد!

أشعر كلما قرأت روايات الجبل فتحي غانم أنه يحمل براءة الأطفال وجرأتهم في الانتقاد دون حسابات ولا تعقيدات ولا محاولات تجميل أو افتعال.

فقد دخل فتحي غانم في معارك كثيرة وكبيرة مع كبار المبدعين بسبب جرأته المبالَغ فيها -أحيانًا- فهاجم إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وقال مخاطبًا يوسف السباعي: «إن العلب الباهظة التي يضعها لتغليف كتبه من الأفضل أن تصبح علب شوكولاته»!

أفكار ضد الرصاص!

«١»

وليٌّ من أولياء الكتابة لكنه لا ينتظر مريدين!

يكتب كأنه يلعب، لديه خفة راقص باليه، ورشاقة لاعب تنس، وجاذبية نجم، وعقلية مفكر، وقلم ناقد، ورؤية فيلسوف لكنه لم يتفلسف أبدًا.

يقول دائمًا: «إنني ومعي جيل كامل أريد فقط أن أفهم أولا.. وأستمع.. وأناقش.. وأتساءل.. وأشكّ.. وأبحث.. وأفكر.. وأوازن ثم -في النهاية- أصل إلى رأي».

هذا هو محمود عوض، مختلف لكن لا خلاف عليه، متمرد بقلب طفل، فذّ في تواضعه، عبقريّ في بساطة تعبيراته، كلماته صادمة لكنها مُحبة، وصادقة، وعاقلة.

كتب «الحرب المستحيلة» لكن أسلوبه في الكتابة كان هو المستحيل ذاته، حاور أم كلثوم فأغضبها، وكان من أقرب الأحياء إلى قلب موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب لكنه حين كتب عنه كاد يخسره، وحين طلب منه صديق عمره عبد الحليم حافظ أن يكتب كتابًا عنه رفض.

رغم صداقته الحميمة بأغلب نجوم عصره «أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وتوفيق الحكيم وطه حسين وإحسان عبد القدوس» وغيرهم فإنه ظل نغمة مختلفة، وصوتًا منفردًا، فلم يجعل الصداقة تؤثّر على الكتابة، ولم تتسلل علاقاته الشخصية

إلى كتاباتـه إلا ليعـرِّف القـارئ الحقيقـة، فحـين أجـرى حـوارا مـع أم كلثـوم سـأله إحسـان عبـد القـدوس رئيـس تحريـر «أخبـار اليـوم» في ذلـك الوقـت: «هـل أطلعـتَ أم كلثـوم عـلى الحـوار قبـل نـشره؟»، فـردّ عـلى الفـور: «منـذ متـى نسـمح لأحـد بالتدخـل في عملنـا؟»، غـير أن إحسـان عاجلـه بسرعـة: «إنهـا ليسـت أي أحـد، إنهـا أم كلثـوم».

وافـق عـوض عـلى عـرض الحـوار عـلى أم كلثـوم، وعندمـا زارهـا في منزلهـا أبـدت اعتراضًـا عـلى جملـة يفتتـح بهـا مقدمـة الحـوار معهـا، فغضـب وسـألها: «مَـن منّـا يفهـم في الغنـاء أكـثر.. أنـا أم أنـتِ؟» فـردت قاطعـة: «أنـا طبعًـا»، فقـال لهـا بسرعـة: «إذن فالكتابـة عمـلي، وأنـا أفهمـه جيـدًا، ولـن أغـيِّر المقدمـة».

لكـن أم كلثـوم هـي التـي غـيَّرت طريقتهـا معـه، وموقفهـا منـه، واحترمـت موهبتـه، وقـدَّرت إخلاصـه لعملـه، وقدراتـه الخاصـة، والاسـتثنائية، وامتثلـت لـه.

«٢»

لكـن قبـل لقائـه الأول مـع أم كلثـوم بقرابـة ربـع قـرن كان عبـد الحليـم حافـظ قـد حسـم قـراره بالالتحـاق بمعهـد الموسـيقى العربيـة قسـم التلحـين.

.. وكان محمـد عبـد الوهـاب يقـدم خامـس أفلامـه «موعـد مـع الحـب» وغنّـى فيـه ثـلاث أغـانٍ هـي «يـا مسـافر وحـدك»، و«بـلاش تبوسـني في عنيّـا»، و«رُدّ عليّـا»، وظهـرت معـه لأول مـرة الفنانـة مديحـة يـسري.

.. وشـاركت أم كلثـوم في بطولـة فيلـم «عايـدة» مـع يحيـى

شاهين وماري منيب، عن قصة عبد الوارث عسر، وكان الفيلم يمثل محاولة لصنع أوبريت عربي عن أوبرا عايدة، لكن التجربة باءت بالفشل.

.. وانتقل توفيق الحكيم ليعمل مديرًا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي في وزارة الشؤون الاجتماعية، لكنه استقال بعد ذلك.

.. وفي العام نفسه تم تعيين طه حسين مديرًا لجامعة الإسكندرية، إضافة إلى عمله الآخر كمستشار فني لوزارة المعارف، ومراقب للثقافة في الوزارة عينها.

.. وانتهت معركة العلمين بانتصار قوات الحلفاء، وصدر قرار بطرد أنور السادات من الجيش بتهمة العمالة مع قوات المحور.

في هذه الأثناء وُلد محمود عوض وتحديدًا في يوم الإثنين ٢٨ من ديسمبر عام ١٩٤٢ في مدينة طلخا بالدقهلية، وكان محبًّا للقراءة منذ صغره، وكادت تتسبب في رسوبه في دراسته، لولا قطعه عهدًا لأبيه بأن يصير تلميذًا متفوقًا، وقد وفَّى بوعده، فقد أرسل كمال الدين حسين -وزير التعليم آنذاك- خطابا إلى والده يضم شيكًا بمبلغ ٢٥ جنيهًا لابنه المتفوق، سلمه الوالد لمحمود ورحل بعدها بيومين مطمئنًّا على مصير ابنه.

وكبر محمود، والتحق بكلية الحقوق، ثم انطلق إلى «أخبار اليوم»، وبعد تخرجه رفض العمل بالنيابة العامة، مفضلا الاشتغال بالصحافة، وبعد ثماني سنوات من تخرجه أصبح نائبًا لرئيس تحرير «الأخبار»، وهو لم يكمل عامه الثلاثين.

ولكن الصدفة لعبت دورًا في نجوميته؛ فعندما تأخر أنيس منصور عن إرسال مقاله اليومي، الذي يُنشر في الصفحة الأخيرة من «أخبار اليوم»، وقرر عبد القدوس -وهو رئيس تحرير

المؤسسة العريقة آنذاك - تكليف هذا الصحفي الشاب بكتابة الصفحة الأخيرة وحده.

كان عقابا لمنصور الذي تسبب تأخره المتكرر في عدم إرسال الجريدة إلى المطبعة في الوقت المحدد، فأهدى إلينا هذا التأخير واحدًا من ألمع نجوم بلاط صاحبة الجلالة.

«٣»

لم أرَه يومًا، ولم تنشأ بيننا أي علاقة، لكنني أشعر بأنني مدين له بكل شيء، فلا أستطيع أن أكتب قبل أن أقرأ له، وربما أكون قد تأثرت به قبل أن أقرأ له حرفًا، وأحزن كلما تذكرت أنه كان بإمكاني أن أقابله وتقاعست عن المحاولة، مجرد شرف المحاولة كان يكفي، فلديّ عدد هائل من الأسئلة كنت أود أن أطرحها عليه، ولا يعنيني أن أنشر إجاباتها، لكني كنت أريد أن أعلم وأتعلم من ناظر مدرسة في الكتابة.

محمود عوض لا يُعوَّض.

ربما أكون قرأت كتبه مرة واثنتين وثلاثًا، بل هناك كتب له قرأتها عشرات المرات لدرجة أني أحفظ مقاطع منها، وعلى رأسها كتابه الأروع «ممنوع من التداول» فلو لم يكتب محمود عوض سوى مقدمة هذا الكتاب لكان يكفيه، فهذا الكتاب لا بد أن يُدرَّس في الجامعات، ولا بد أن يقرأه الجميع، حتى يعلم الجميع حقيقة إسرائيل، وكيف تُدار من خلف الكواليس منذ اليوم الأول الذي عُقد فيه المؤتمر الأول الذي حضره ١٩٧ وفدًا من ١٥ دولة مختلفة وهم لا يعرف بعضهم بعضا ولكنهم جميعًا يمثلون جمعيات «حب صهيون»!

وكذلك كتابه الفذّ «أفكار ضد الرصاص»، الذي يشرح فيه قصة أربع جرائم قتل، مع سبق الإصرار والترصد، قتل عمد، ومع ذلك يخرج الجاني بعد كل جريمة بلا عقاب رغم أن القتيل معروف، وأداة القتل مضبوطة، وسبب القتل واضح، والشهود موجودون، والقاتل معترف، ومع ذلك فالجريمة يتم تسجيلها ضد مجهول!

فالقاتل في كل مرة مجموعة من الأشخاص، لكن السكين تحملها يد واحدة لها تفكير السلطة، وأسلحة السلطة وجبروت السلطة، والقتيل هو «كتاب» مجرد حبر على ورق، لكن صدر ضده حكم بالإعدام، وهذا الحكم صدر ضد أربعة كتب لقاسم أمين والكواكبي وطه حسين وعلي عبد الرازق. ويفسر عوض في كتابه سر اغتيال هذه الكتب بالذات.

كُتب محمود عوض بمثابة شربة ماء في صحراء، فلا تَدعْها تفوتك.

النجم الذي هوى!

«١»

فجأة نزل إلى قنا شاب في رُفع بوصة الذرة، كأنه خيط حاد شُدّ بالشمع ليستعصي على القطع.

لا يغيِّر لغته حسبًا لنوعية الناس، وإنما يظلون ينظرون إليه في دهشة كأنه كائن فضائي غريب حطّ بينهم فجأة بلغة فضائية لا يفهمونها ويتحدث عن مخلوقات أخرى مشابهة له، بينما أهالينا البسطاء يظلون أمامه فاغري الأفواه يتعجبون من معجزات الله التي أودعها خلقه.

إنسان رقيق مهذَّب، كأنه منسوج من حرير، وفي نفس الوقت بركان ثائر يقذف بالحمم دون توقُّف، فهو طفولي لكن تمتزج عبقريته بحب شديد للملاعبات والمداعبات.

عيناه حمراوان كأنه شرب لتوِّه برميل روم، سبابة يمناه طويلة، ومستعدة لتنغرس في عين كل من يقول كلمة ضد الأستاذ عباس محمود العقاد!

إنه يحيى الطاهر عبد الله، كما وصفه الخال عبد الرحمن الأبنودي، مذ رآه لأول مرة حضر فيها إلى بيته، ودَقّ الباب، وقالت فاطمة قنديل، والدة الأبنودي: «عاوز إيه؟» فقال: «عاوز عبد الرحمن»، فسألته: «أنت مين؟»، فردّ: «جوليله يحيى الطاهر عبد الله»، فشدّت فاطمة قنديل «السُّقاطة» ليدخل.

ومر يحيى الطاهر من الباب، واستقرّ في إحدى الغرف،

فدخل وقعد وولع سيجارة، وقرر أن لا يغادر هذا البيت أبدًا، دون أن يدعوه أحد أو يستأذن من أحد.

وجلس يحيى الطاهر، وحصل على حقوق لم يحصل عليها عبد الرحمن ذاته، لدرجة أنه كان يدخل في نقاشات عنيفة مع أبناء الشيخ الأبنودي الكبار، وينتقدهم علنًا حتى ضاقوا به، لكنه لم يكن يحسّ ذلك، فقد كان يعتقد أنه يرى الحقيقة، وعلى الجميع أن يروا ما يراه وإلا كانوا متخاذلين لا يبغون تطوير أنفسهم، وذهبت محاولات الخال لإسكاته سُدًى، بل إنه كان يتعجب حين يقول له الخال إنه يجب أن يتصرف باعتباره ضيفًا سوف يرحل آجلًا أم عاجلًا.

وكان يردّ على الأبنودي بهدوء شديد قائلًا: مَن قال إنني سوف أرحل؟ ثم أن إخوتك لا يملكون الحق في الضيق بي لأنني في هذا البيت أسلك في إطار حقوقك أنت، إذ إنني أنت، وإذا لم يكن يعجب أبناء الشيخ وجودي بينهم فليرحلوا»!

راقبه أبناء الشيخ الأبنودي أيامًا ثم قرروا أنه مجنون، وأنه ليس من الطبيعي لرجل لا يعرفون عنه شيئًا أن يصبح عضوا دائمًا في البيت يعرف أسراره، ويحضر الشجارات ويتدخل فيها وينحاز إلى جانب ضد جانب، ويفعل ما يشاء وقتما يشاء.

هكذا أقام يحيى الطاهر في بيت الشيخ، كأنه نزل إليهم بالباراشوت لينزرع في قلب أمل وعبد الرحمن دون سابق معرفة أو إنذار، كأنه يحيا بينهم منذ ولادتهم.

«٢»

يحيى الطاهر شخصية بديعة ومبدعة لكنه أيضًا -مثل أفذاذ كثيرين- به مَسٌّ من جنون؛ فذات يوم قرر أن يترك عمله، ويتفرغ للقراءة، وذهب إلى أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي ليبلغهما القرار، حينها ثار أمل في وجهه ثورة عنيفة، فإذا بيحيى يقول: «طب وفيها إيه يا أمل؟ فيها إيه يا خيّي؟ أنا جيت من الكرنك علشان أشوفكم انتو ولّا عشان الوظيفة؟ يجطع الوظيفة واللي يعوز الوظيفة».

قال أمل: «وكيف تأكل وتشرب وتدخن هذا الكم من السجائر التي لا ندخنها مجتمعين؟».

ويرد يحيى: «إهدا بس يا خيّي. الأكل والشرب عند الحاجة أم عبد الرحمن، الأكل في بيت الشيخ الأبنودي يكفي جَبيلة، أما عن الدخان فمتآخذنيش ده انت أبو الكرم، مثلا علبة السجاير دى جابها لي مصطفى الشريف...».

ويصرخ أمل قائلًا: «وكمان عرفت مصطفى الشريف؟ إمتى وفين؟».

يقول يحيى الطاهر: «لقيته في الندوة واتكلمت معاه، وكلمة من هنا وكلمة من هناك لقيت الراجل حبّني وراح اشترالي علبتين سجاير».

المدهش أن يحيى الطاهر كان قد ترك عمله قبل أن يحزم حقائبه ويحملها إلى قنا، لكن كان يدرك أن هذا القرار سيتسبب في ثورة ضده، لذلك كتمه في قلبه، ولم يبلغ به أحدًا، بل ادّعى أنه انتقل للعمل من وزارة الزراعة في الأقصر إلى قنا حتى يقتنع

الجميع بما فعله.

منذ ذلك الوقت صار عبد الرحمن وأمل وثالثهم يحيى الطاهر لا يفترقون أبدًا، يأكلون ويشربون ويسهرون معًا.

لكنها صدفة عجيبة ومذهلة أيضًا أن يُمنح الجنوب ثلاثة على هذا القدر من العبقرية والتفرد في زمن واحد، شاعران فذّان، وأديب متفرد، إلا أنهم من كثرة «العِشرة» و«العيش والملح» صاروا ثلاثة شعراء؛ إذ لُقب يحيى الطاهر بشاعر القصة القصيرة.

«٣»

وُلد يحيى في ٣٠ أبريل ١٩٣٨ في قرية الكرنك بمحافظة الأقصر، ورحلت والدته عن الدنيا وهو في سن صغيرة، وتركته مع أخواته الثماني، فربّته خالته التي صارت زوجة أبيه في ما بعد، أما والده فكان شيخًا معمَّمًا يقوم بالتدريس في إحدى المدارس الابتدائية بالقرية، فطبع حب اللغة العربية في قلب نجله، لكنه لم ينل حظه الوافر من التعليم، فقد تلقَّى تعليمه في قرية الكرنك حتى حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة ثم عمل بوزارة الزراعة لفترة قصيرة.

لكنه ترك الوظيفة وسار خلف حلمه، وبدأ يقرأ بنهم شديد، ويكتب بتركيز كبير، لمدة عامين متتاليين دون أن ينشر شيئًا، وفي ١٩٦١ كتب أولى قصصه القصيرة «محبوب الشمس»، والتقى يوسف إدريس، وحين قرأ قصصه في مقهى «ريش» قرر أن يقدمه في مجلة «الكاتب»، وإدريس لا يعترف إلا بالأفذاذ.

واستمرت رحلة يحيى الطاهر وانطلق كالشهاب، لا أحد يمكن أن يوقِف قطار إبداعاته، فكتب «ثلاث شجيرات تثمر

برتقالا»، و«الطوق والأسورة»، و«الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة»، وغيرها من الأعمال الأدبية التي تجعله واحدًا من علامات الأدب، لكن المواهب الكبرى غالبًا ما ترحل سريعًا، ففي التاسع من أبريل عام ١٩٨١ رحل قبل أن يكمل عامه الثالث والأربعين في حادثة سيارة على طريق «القاهرة-الواحات»، وحينذاك لم يصدق أحد أن صاحب هذه الموهبة الجبارة قد رحل فجأة، وكتب عنه عملاق القصة القصيرة يوسف إدريس مقالا بعنوان «النجم الذي هوى»، ورثاه الأبنودي، وقال عنه أمل دنقل:

«ليت أسماء تعرف أن أباها صعد
لم يَمُتْ
هل يموت الذي كان يحيا
كأن الحياة أَبَدْ
وكأن الشراب نَفَدْ
وكأن البنات الجميلات يمشين فوق الزبد!!»

الفهرس

كتب مُلهِمة

- «سيرة الحبايب»، «مصر يا ولاد»، سناء البيسي.
- «الظُرَفَاء»، «عودة الحمار»، محمود السعدني.
- «أى كلام»، أحمد رجب.
- «ألعاب السيرك السياسي»، مصطفى محمود.
- «أفكار ضد الرصاص»، «ممنوع من التداول»، محمود عوض.
- «من هنا نبدأ»، «هذا أو الطوفان»، خالد محمد خالد.
- «أيام لها تاريخ»، أحمد بهاء الدين.
- «ضحكات صارخة»، محمد عفيفي.
- «رحلة إلى قلب نهرو»، محمد عودة.
- «أنا وبارونات الصحافة»، جميل عارف.
- «تأملات ساخرة»، «صائمون والله أعلم»، أحمد بهجت.
- «الأعمال الكاملة»، أمل دنقل.
- «الأعمال الكاملة»، محمود درويش.
- «الأعمال الكاملة»، عبد الرحمن الأبنودي.
- «الأعمال الكاملة»، فتحي غانم.
- «الأعمال الكاملة»، صلاح جاهين.
- «شخصية مصر»، جمال حمدان.
- «هم وأنا»، صالح مرسي.
- «الذين أحبوا مي»، كامل الشناوي.
- «أفكار للبيع»، علي أمين.

- «دبّرنـا يا وزير»، صلاح حافظ.
- «قُـضْ الكلام»، جلال عامر.
- «شـخصيات وتجارب»، «الإمـام المراغى»، رجاء النقاش.
- «صديقــي لا تــأكل نفســك»، «اندهــش يــا صديقــي»، عبــد الوهــاب مطـاوع.
- «أخبار المصريين في القرن العشرين»، سـعيد هارون عاشـور.

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 - 01001872290 - 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :









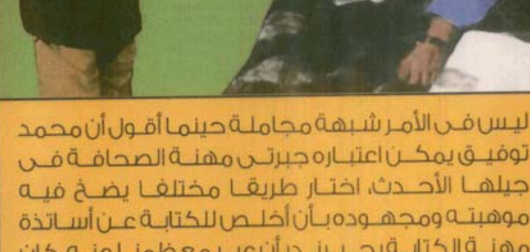




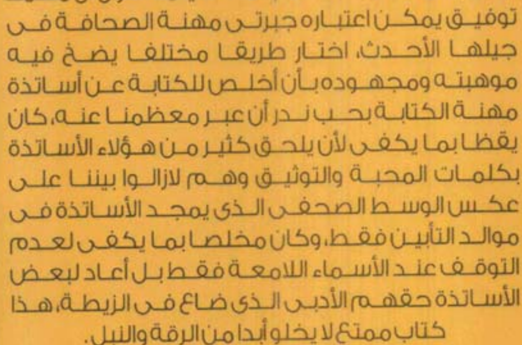
محمد توفيق



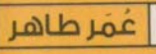


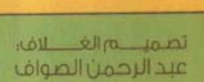






ليس فى الأمر شبهة مجاملة حينما أقول أن محمد توفيق يمكن اعتباره جبرتى مهنة الصحافة فى جيلها الأحدث، اختار طريقا مختلفا يضخ فيه موهبته ومجهوده بأن أخلص للكتابة عن أساتذة مهنة الكتابة بحب ندر أن عبر معظمنا عنه، كان يقظا بما يكفى لأن يلحق كثير من هؤلاء الأساتذة بكلمات المحبة والتوثيق وهم لازالوا بيننا على عكس الوسط الصحفى الذى يمجد الأساتذة فى موالد التأبين فقط، وكان مخلصا بما يكفى لعدم التوقف عند الأسماء اللامعة فقط بل أعاد لبعض الأساتذة حقهم الأدبى الذى ضاع فى الزيطة، هذا كتاب ممتع لا يخلو أبدا من الرقة والنبل.





تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف





